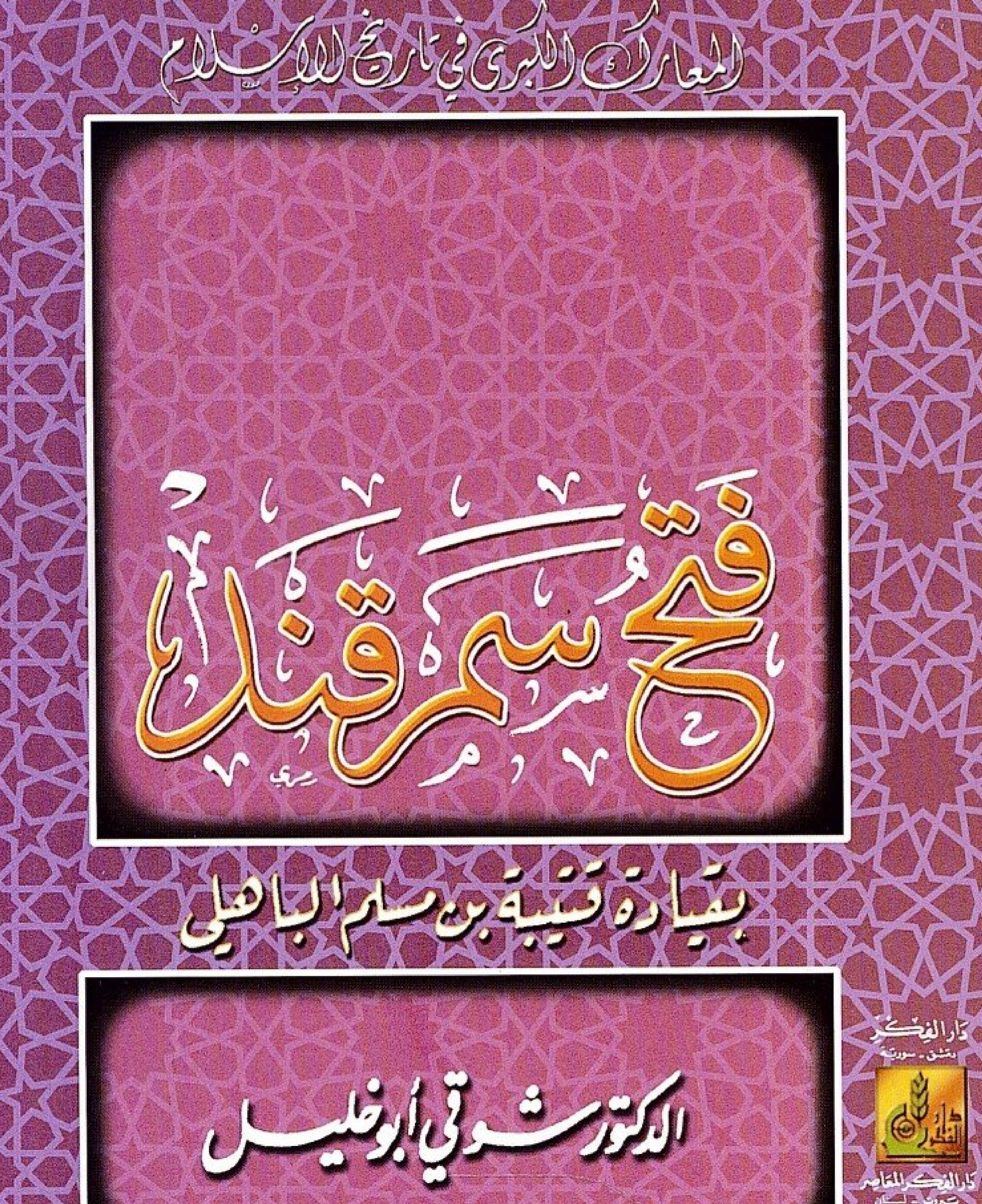


المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام
فتح سمرقند
بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي
الدكتور شوقي أبو خليل
دار الفكر
دمشق - سورية
دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم



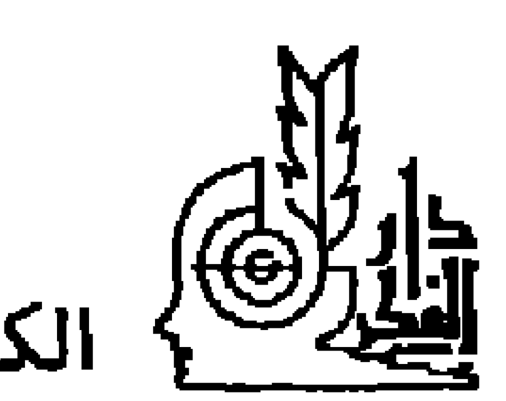
الدكتور شوقي أبو خليل

فتح سمرقند

بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية



الكتاب ٨٥٧

الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ = ١٩٩٢ م

سورية - دمشق - برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد - ص.ب (٩٦٢)
برقياً: فكر - س.ت ٢١٥٤ هاتف ٢٢٩٧١٧ ، ٢١١١٦٦ - تلكس FKR 411745 SY

الصف التصويري : دار الفكر بدمشق
الطباعة (أوفست) : المطبعة العلمية بدمشق

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

مُقدِّمَةٌ

وقفة احترام لعقيدة الفاتحين الّذين جاؤوا من بيئة حارّة في شبه جزيرة العرب والكوفة والبصرة ، إلى بيئة باردة ثلجيّة في خُراسان وما وراء النّهر ، كيف تأقلموا ؟ وكيف عملوا في هذا المناخ المغاير كليّاً لمناخ مساقط رؤوسهم وبيئتهم ؟

بسم الله القائل في محكم التّنزيل : ﴿ قَالَت إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ ٱسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَأْجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ ، [القصص : ٢٦/٢٨] ، وصلّى الله على سيّدنا محمّد القائل : « لا يشكرُ اللهَ مَنْ لا يشكر النّاس » ، [رواه أبو داود ، والتّرمذي ، والإمام أحمد] ،

وبعد ..

كنت وأنا أُعِدُّ هذا الجزء من (المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام) ، أتذكّر موقفَيْن ، الموقف الأوّل فيه عتبٌ ولوم ، والموقف الثّاني فيه تقديرٌ واحترام .

الموقف الأوّل :

كان هـذا المـوقف سنـة ١٩٨٥ ، حينمـا زرت بصحبـة عـدد من الزّملاء مدينة حلب ، ثم انطلقنـا منهـا إلى بلـدة مرج دابق ، حيث قبر سليمان بن عبد الملك ، وأمام القبر قرأت فـاتحـة الكتـاب الكريم على روحه ، فـالفـاتحـة هـديّـة الحيّ إلى الميت كلّما وقف أمـام قبر ، ولكن قد تكون هذه الهديّة هديّة حبٍّ واحترام ، وقد تكون هـديّـة مصالحة أو مصلحة ، وقد تكون هديّـة قرب أو عتـاب ، ولقـد كانت هديّتي إلى روح سليمان بن عبـد الملـك ، من هـدايـا النّوع الأخير ، هديّة عتب ولوم .

ورحت بعد تقديم هديّتي أخاطب روح سليمان قائلاً : سامحـك الله ، وغفر لـك ، لِمَ فعلتَ مـافعلت ؟ لِمَ قضيتَ على خيرة قـادة أمّتنا لأسباب شخصيّة ؟ لِمَ هذه النّقمة الشّديدة على عمّال الوليد بن عبد الملك ؟ لِمَ فعلتَ كلَّ مافعلت بهؤلاء القـادة الأعلام ؟ لِمَ أهنتَ محمد بن القاسم الثّقفي حتّى مات مكبّلاً بسجن مدينة واسـط ؟ ولِمَ هذه الخاتمـة المحزنـة لموسى بن نصير ، وطـارق بن زيـاد ؟ ولِمَ هـذه النّهـايـة المؤلمـة لقتيبـة بن مسلم البـاهلي ؟ صحيـح أنّ قتيبـة أقرّ الوليد بن عبد الملك في خلعك ، وتعيين ابنه عبد العزيز بن الوليـد لولاية العهد ، لكنّه لم يطمع بِمُلْك أو جاه أو مال ، فعندمـا وصلت إليـك الخلافـة ، وأصبحت سيّـد الموقف ، لِمَ لَمْ تقرّه على مـا بيـده ،

وقد أرسل إليكَ رسالة تحمل العزاء بوفاة الوليد ، وتحمل التّهنئة إليكَ بالخلافة ، ويعلمك ببلائه وطاعته لعبد الملك والوليد ، وأنّه لكَ على مثل ما كان لهما من الطّاعة والنّصيحة إن لم تعزله عن ولاية خُراسان ، وهو الّذي قدَّم ماقدَّم ، وفتح مافتح ، سامحك الله ، ماذا فعلت بانتشار الإسلام في العالم القديم كلّه ؟

لقد كان هدفُ الحجّاج بن يوسف الثّقفي من إرسال قتيبة إلى ماوراء النّهر ، ومن إرسال محمَّد بن القاسم إلى السِّند ، فتحَ الصّين : « أيُّكما سبق إلى الصّين فهو عامل عليها وعلى صاحبها » ، و « لو عاش الحجّاج لما أقلع عن بلاد الصّين » ، لقد أوقفتَ ـ يا سليمان ـ مشروع الفتح الحضاري وأوصدتَ بابه فجأة ، ومحوتَ فكرة موسى وطارق بالعودة إلى عاصمة الخلافة دمشق ، عن طريق القسطنطينيَّة ، عابرَيْن حوض البحر المتوسط الشّمالي كلّه .

سامحك الله ، لقد كانت مدّة خلافتك سنتَيْن وثمانية أشهر فقط ، فماذا عملت خلالها على قصرها ؟ لقد أغلقت باباً مصيريّاً في مستقبل الإسلام وانتشاره ، وإن كان سيفتح بعدها ثانية ، من خلال مصراعٍ واحدٍ ، أو بعض مصراع ، تركت دونه صور النّهايات القاسية الأليمة الّتي عاناها كبار القادة ، وسادة الفتح .

كيف كان مستقبل الإسلام لو تركت هؤلاء القادة ، متسامحاً

متناسياً ما كان ، والشّاعر يقول :

إذا سُدْتَ قوماً فاجعل الجودَ بينهم وبينَكَ تأمن من كُلِّ ما تتخوَّفُ
فإن كُشِفَت عند الملمَّات عَوْرةٌ كفاكَ لباسُ الجودِ ما يتكشَّفُ

خصوصاً وأنَّ نصوصاً في مراجع غير عربيَّة تذكر اليوم أنَّ كاشغر ؛ لم تكن أبعد بلدة وصلها جيش قتيبة ، فالمستشرق المنغاري (أرمانوس ڤابري) يذكر في كتابه : (تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتّى العصر الحاضر) أنَّ جيش قتيبة توغَّل إلى ما وراء كاشغر ، حتى وصل مقاطعة (قانسو) في وسط الصّين ، كما وصل إلى مدينتي (ترمان) الواقعة في جنغاريا على حدود منغوليا الغربيَّة ، و (خوتن) الواقعة شمالي هضبة التِّيبت ، وشرقي كشمير ، مما جعل إمبراطور الصّين (يوانغ جونغ) يطلب الصُّلح من قتيبة !!

وقفتُ دقائق صامتاً والأفكار تتوارد ، والعتب يزداد ، واللَّوم يكبر ، حتَّى ناداني زميل أن هيَّا لمتابعة المسير ، فودَّعت سليمان وأنا أقول : على كلٍّ لقد ختمتَ حياتك هنا ، في هذه الرُّقعة من الأرض ، في مرج دابق ، بأن عهدت لعمر بن عبد العزيز ـ الدُّرَّة المتميِّزة في جبين الخلافة الأُمويَّة ـ من بعدك ، وإن كان هذا العهد بمشورة الرَّجل الصَّالح الفاضل رجاء بن حَيْوَة ، أسأل الله عزَّ وجلَّ أن يجعل لك بهذا العهد كفَّارة لما سلف .

الموقف الثّاني :

أمَّا الموقف الثَّاني ، والَّذي له علافة وثيقة بهذا الجزء من (المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام) ، فقد كان في شهر شباط سنة ١٩٨٩ ، عندما كُنت في زيارة لمدينة مَشْهَد ، مركز ولاية خُراسان ، في أقصى الشَّمال الشَّرقي من إيران ، وطلبت زيارة طوس ونيسابور ، فانطلقت بنا السَّيّارة إلى طوس ، فزرنا قبر حجَّة الإسلام أبي حامد الغزالي ، وقبر الفردوسي ، ثمَّ انطلقت السَّيّارة إلى نيسابور ، فزرنا قبر العالِمَ الزَّاهد فريد الدِّين العطّار ، وهو بين مشهد ونيسابور ، أمّا في نيسابور فقد زرنا قبر عمر الخيَّام ، وقبر الرَّسّام الكبير كمال الملك (محمَّد الغفاري) ، وعدنا إلى الفندق مساءً ، والبرد الشَّديد جداً يلفح وجوهنا ، على الرَّغم من استعداداتنا لمثل هذا المُناخ ، على أمل العودة بعد يوم أو يومَيْن إلى طهران ، ومنها إلى دمشق ، ولكن الأخ المرافق ، الَّذي ذهب لمراجعة شركة الطَّيران عاد إلينا ليقول : لاندري متى سنعود إلى طهران ، فقلت له : لِمَ وقد تحقَّق المرجو من الرِّحلة ؟ قال : درجة الحرارة في خارج الفندق الآن ستَّ عشرة درجة دون الصِّفر ، فأُغلق المطار ، لعدم تمكُّن الطَّائرات من الهبوط والإقلاع فيه ، فقلت : الخيرة فيما اختاره الله ، ففي مشهد أُنس بجوار الإمام الرِّضا عليه السَّلام .

وبعد تناول طعام العشاء ، سألني أحد الأصدقاء ، ما الَّذي أعجبك في ترحالنا اليوم ؟ فقلت : منذ انطلقنا بالطَّائرة من مطار طهران ، وهي الرَّي القديمة ، وحتَّى هبوطها في مطار مشهد ، لاحظت أنَّ الأرض بساط أبيض من الثَّلج المتساقط ، لقد كان الثَّلج يغطِّي طهران ، أكثر من نصف متر ، وهو في الجبال شمالاً وشرقاً أكثر من ثلاثة أمتار ، وانطلقت بنا السَّيَّارة اليوم إلى نيسابور الَّتي تبعد أكثر من مئة كيلومتر عن مشهد ، والثَّلج يغطِّي الأرض ، ودرجة الحرارة نهاراً دون الصِّفر بعشر درجات ، وهي الآن ستَّ عشرة درجة دون الصِّفر في الخارج ، وقد تصل دون ذلك ، كلُّ هذا يجعلني أقف وقفة إعجاب بالقائد الفاتح قتيبة بن مسلم الباهلي ، ووقفة احترام لعقيدة حملت المجاهدين من جزيرة العرب والكوفة والبصرة ، جاؤوا من مناطق حارَّة المناخ ، قليلة الأمطار ، إلى مناطق باردة ثلجيَّة ، كيف تأقلموا ؟ كيف عملوا في هذا المناخ المغاير كليّاً لمناخ مساقط رؤوسهم وبيئتهم الَّتي عاشوا فيها سنيهم الأُولى ؟ خصوصاً عندما عبروا نهري جَيْحون (أُموداريا) ، وسيحون (سرداريا) ، واجتازوا إلى الصِّين من منطقة تتجاوز قمم جبالها سبعة آلاف متر .

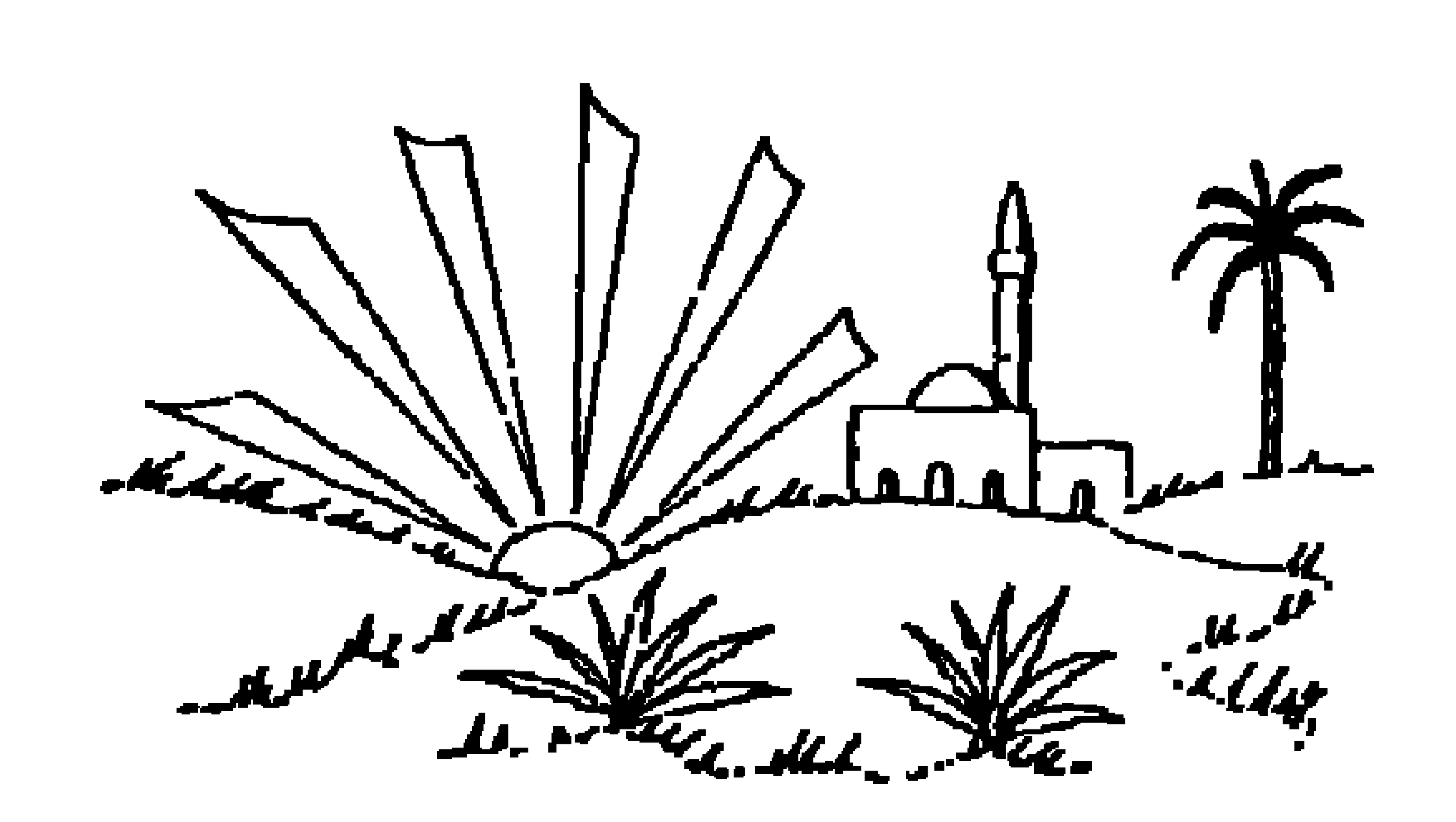
قرَّرت وأنا في مدينة مشهد ، في فندق أَتْرَك Atrak ـ وهذا اسم نهر يصبُّ في بحر قزوين ، يشكِّل في قسمه الأخير الحدَّ الفاصل بين

تركمنستان وإيران حالياً ـ أن أكتب عن قتيبة وفتح ماوراء النّهر ، فكان هـذا الكتـاب من سلسلـة (المعـارك الكبرى في تـاريـخ الإسلام) .

والحمد لله ربّ العالمين أوّلاً وآخراً .

دمشق ٢٢ رجب الفرد ١٤١٢ هـ
٢٦ كانون الثاني ١٩٩٢ م

الدكتور شوقي أبو خليل





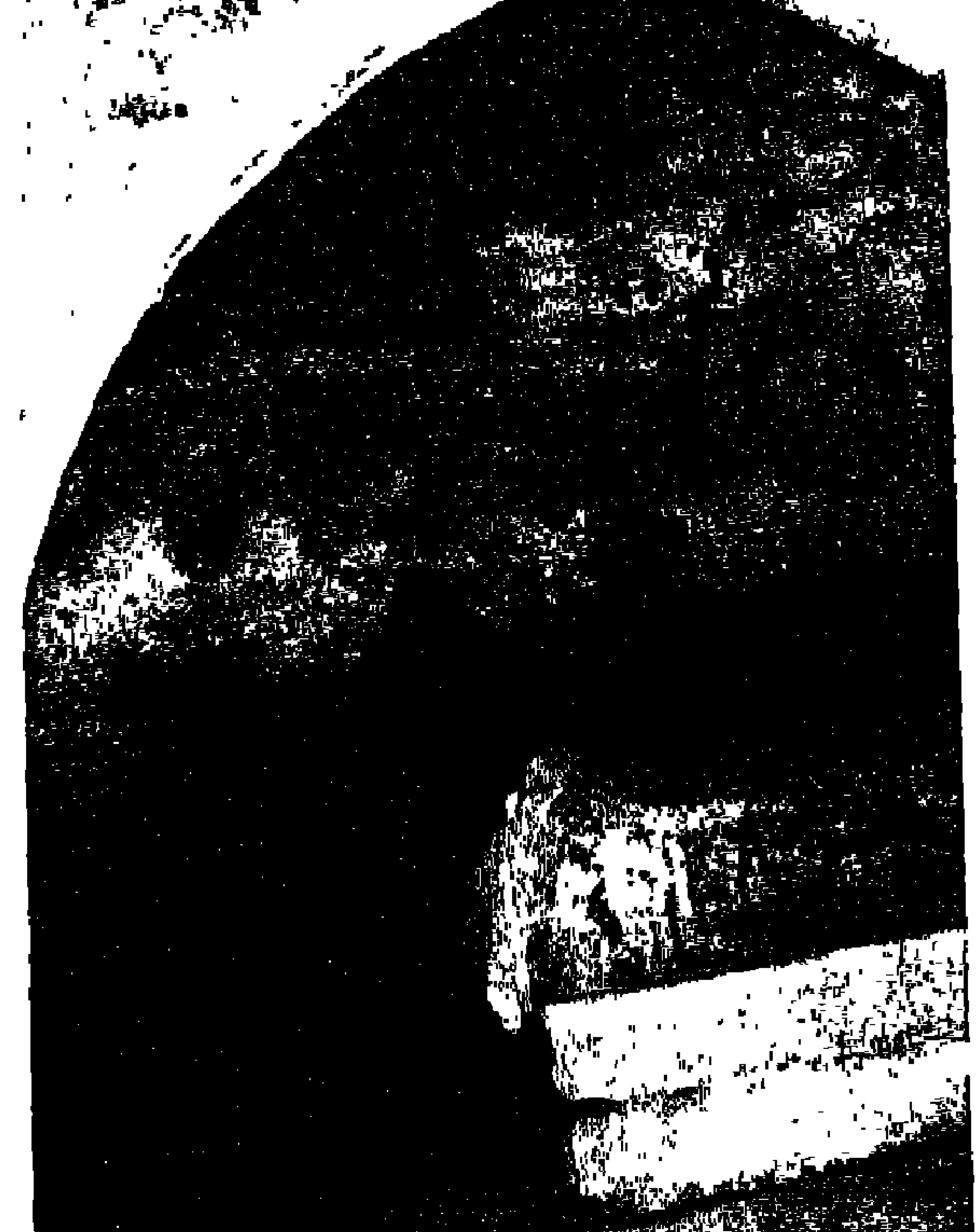
قبر كمال الملك
(محمد غفاري)
في نيسابور



قبر عمر الخيام
في نيسابور



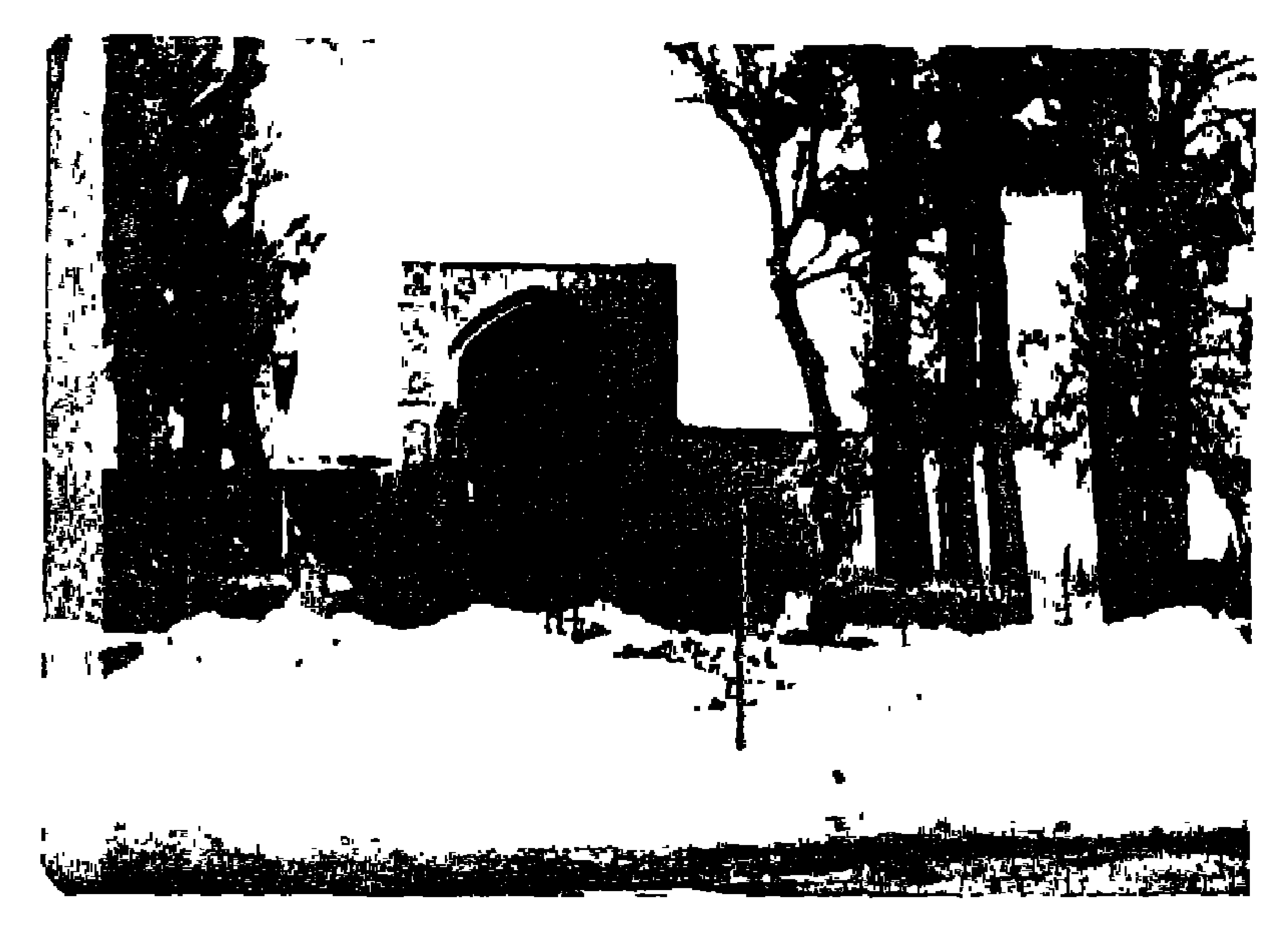
القبّة الّتي تعلو قبر سليمان بن عبد الملك في مرج دابق



قبر سليمان بن عبد الملك (مرج دابق)



قبر فريد الدين العطَّار ، في الطَّريق من مشهد إلى نيسـابور



قبر محمد بن موسى الكاظم في نيسـابور

الوليد بن عبد الملك

« أوصيكم بتقوى الله ، فإنّها أزينُ حِلْية ، وأحصن كهف ، ليعطف الكبير منكم على الصّغير ، وانظروا مَسْلَمة فاصدروا عن رأيه ، فإنّه نابكم الّذي عنه تفترّون ، ولحيكم الّذي عنه ترمون ، وأكرموا الحجّاج فإنّه الّذي وطّأ لكم المنابر ، ودوّخ لكم البلاد ، وأذلّ لكم معنى الأعداء .. » .

[عبد الملك بن مروان]

توفي عبد الملك منتصف شوال سنة ٨٦ هـ ، وأوصى بنيه فقال : « أُوصيكم بتقوى الله ، فإنّها أزين حِلْية ، وأَحصن كهف ، وليعطف الكبير منكم على الصَّغير ، وانظروا مَسْلَمة[١] فاصدروا عن رأيه ، فإنَّه نابكم الَّذي عنه تفترّون[٢] ، ولحيكم[٣] الَّذي عنه ترمون ،

(١) مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم : [ت ١٢٠ هـ = ٧٣٨ م] : أمير قائد ، من أبطال عصره ، له فتوحات مشهورة . سار في مئة وعشرين ألفاً لفتح القسطنطينية في دولة أخيه سليمان بن عبد الملك سنة ٩٦ هـ ، وغزا التُّرك والسّند سنة ١٠٩ هـ ، مات بالشّام ، قال الذّهبي : كان أُولى بالخلافة من سائر إخوته ، [الأعلام : ٢٢٤/٧] .

(٢) الافترار والانكلال هو الضحك الحسن ، [فقه اللُّغة : ١٠٥] .

(٣) اللّحي : حائط الفم ، وهو العظم الّذي فيه الأسنان ، [اللّسان : لحا] .

وأكرموا الحجّاج فإنّه الّذي وطأ لكم المنـابر ، ودوَّخ لكم البلاد ، وأذلَّ لكم مغنى الأعـداء ، وكـونـوا بني أم بررة لا تـدبُّ بينكم العقـارب ، وكـونـوا في الحرب أحراراً ، فـإنَّ القتـال لا يقرّب منيَّـة ، وكـونـوا للمعروف منـاراً فـإنَّ المعروف يبقى أجره وذخره وذكره ، وضعـوا معروفكم عند ذوي الأحساب ، فإنَّـه لصون لـه وأشكر لما يؤتى إليهم منه ، وتعهَّدوا ذنوب أهل الذُّنوب ، فإن استقـاموا فـأقيلوا[1] ، وإن عادوا فانتقموا »[2] .

وفي البداية والنّهاية : ٦٧/٩ : لما احتُضر عبد الملك دخل عليـه ابنه الوليد فبكى ، فقال له عبد الملك : ماهذا ؟ أتحن حنين الجارية والأَمَة ؟ إذا أنا مِتُّ فشمّر وأتزر ، والبس جلـد النّمر ، وضع الأُمور عند أقرانها ، واحذر قريشاً .. ثمَّ قال له : وانظر الحجّـاج بن يوسف فأكرمه ، فإنّه هو الّذي مهّد لك البلاد ، وقهر الأعـداء ، وخلص لكم المُلْـك ، وشتّت الخوارج ، وأنهـاك وإخوتـك عن الفرقـة ، وكونـوا أولاد أُم واحدة ، وكونوا في الحرب أحراراً ، وللمعروف مناراً ، فـإنَّ الحرب لم تدنِ منيَّة قبل وقتها ، وإنَّ المعروف يشيد ذكر صـاحبـه ، ويميل القلوب بالمحبّة ، ويذلّل الألسـنة بالذّكر الجميل[3] ..

---

(١) فأقيلوا : فاتركوا ، يقال : تقايلا بعدما تبايعا أي تتاركا ، [اللّسان : قيل] .

(٢) ابن خلدون : ٥٨/٣ ، وانظر الفتوح لابن الأعثم : ٢٠١/٧

(٣) وانظر : مروج الذّهب : ١٧٠/٣ أيضاً ، ومختصر ابن عـاكر : ٢١٩/٢٧

توفي عبد الملك سنة ٨٦ هـ ، وهو الَّذي خطب يوماً خطبة بليغة ، ثمَّ قطعها وبكى بكاء شديداً ، ثمَّ قال : يا رب ، إنَّ ذنوبي عظيمة ، وإن قليل عفوك أعظم منها ، اللّهم فامح بقليل عفوك عظيم ذنوبي[1] ، فتولى منصب الخلافة ابنه الوليد ، الَّذي كان صيِّناً في نفسه ، حازماً في رأيه ، لا تعرف له صبوة[2] .

بايع الناسُ الوليد ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثمَّ قال : « أيُّها النَّاس ، لا مقدِّم لما أخَّره الله ، ولا مؤخِّر لما قدَّمه الله ، وقد كان من قضاء الله وسابق علمه وما كتب على أنبيائه وحملة عرشه الموت ، وقد صار إلى منازل الأبرار ، وولي هذه الأُمَّة بالَّذي يحقّ لله عليه في الشّدة على المذنب ، واللّين لأهل الحقّ والفضل ، وإقامة ما أقام الله من منازل الإسلام وإعلائه من حجّ البيت ، وغزو الثُّغور ، وشنّ الغارة على أعداء الله ، فلم يكن عاجزاً ولا مفرطاً .

أيُّها النَّاس ، عليكم بالطَّاعة ولزوم الجماعة ، فإنَّ الشَّيطان مع المنفرد »[3] ..

---

(١) البداية والنّهاية : ٩/٦٧

(٢) الصّبوة : جَهْلَة الفُتُوَّة واللّهو من الغَزَل . ومنه التّصابي ، [اللّسان : صبا] ، ويخلط العامَّة كثيراً بين الوليد بن عبد الملك ، الفاتح العظيم ، وبين ما ورد وما قيل عن الوليد بن يزيد بن عبد الملك .

(٣) ابن خلدون : ٣/٥٨

إنَّه أبو العبَّاس ، الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أُميَّة بن عبد مناف ، أكبر أولاد عبد الملك ، أمُّه : ولأدة بنت العبَّاس بن حزن بن الحارث بن زهير العبسي ، وُلِدَ سنة ٥٠ هـ ، كان نقشه على خاتمه : « يا وليد ، إنَّك ميِّت ومحاسب »[١] .

كان الوليد بن عبد الملك عند أهل الشَّام أفضل خلفائهم ، تمثِّل خلافته العصر الذَّهبيّ في الحكم الأُموي ، من حيث الفتوح ونشر الإسلام ، ومن حيث الإصلاحات والبناء والتنظيمات الإداريَّة .

لقد بدأ عصر الفتوحات الإسلاميَّة أيَّام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكانت الخطوة الثَّانية الكبرى أيَّام معاوية بن أبي سفيان ، وكانت الخطوة الثَّالثة أيَّام الوليد بن عبد الملك ، وتمثِّل سنة ٩٣ هـ قمَّة الفتوح الإسلاميَّة على مرِّ التَّاريخ ، ففي هذه السَّنة ـ سنة ٩٣ هـ ، وأيَّام الوليد بن عبد الملك وضمن فتح منظَّم دائم رافقه نشر الإسلام ـ فُتحت سمرقند على يد قتيبة بن مسلم الباهلي ، والدَّيبل على يد محمد بن القاسم الثَّقفي ، وطليطلة على يد موسى بن

---

(١) صبح الأعشى : ٣٥٤/٦ ، ومآثر الإنافة : ١٣٣/١ ، والتَّنبيه والإشراف : ٢٧٤ ، وفي البداية والنِّهاية : ١٦٢/٩ : « كان نقشه على خاتمه : أومن بالله مخلصاً ، وقيل : يا وليد إنك ميِّت » .

نصير وطـارق بن زيـاد ، فتضـاعفت في السَّنوات العشر من حكم الوليد بن عبد الملك مساحة رقعة أرض الإسلام[1] .

أما الإصلاحات والتنظيمات ، فنذكر منها :

أمَّا إصلاحـاتـه ، فهو أوَّل من بنى المستشفيـات في الإسـلام للمرضى ، وأوَّل من اتَّخذ داراً للضِّيافـة[2] ، وأوَّل من بنى الأَميـال في الطُّرق ، ووضع الصُّوَى[3] .

وحينمـا ولي جـوَّد القراطيس ، وجلَّـل الخطـوط ، وفخَّم المكاتبات[4] .

---

(١) جاء في البداية والنِّهايـة : ٩٥/٩ : « فتح الله على الإسلام فتوحات عظيمة في دولة الوليد بن عبد الملك ، على يدي أولاده وأقربائه وأمرائه . حتَّى عاد الجهاد شبيهاً بأيَّام عمر بن الخطاب رضي الله عنه » .

(٢) بنى الوليد بيوتاً ومنازل يأوي إليها الغرباء .

(٣) وُضِعَت الصُّوَى : وهي حجر على قارعة الطَّريق تكتب عليه المسافة ، ويثبَّت عليه الاتجاه ، والمِيلُ من الأرض : قدر منتهى مدِّ البصر ، والجمع أميال وميول ، وقيل للأعلام المبنية في طريق مكَّة أميال ، لأنَّها بنيت على مقادير مَدَى البصر من الميل إلى الميل ، وكلُّ ثلاثة أميال منها فرسخ ، والمِيلُ : منار يبنى للمسافر في أنشاز الأرض وأشرافها . [اللِّسان : ميل] ، والميل الشَّرعي = ١٨٤٨ م ، والفرسخ الشَّرعي = ٥٥٤٤ م ، انظر : [كتاب الإيضاح والتِّبيان في معرفة المكيال والميزان . لابن الرِّفعة الأنصاري ، تحقيق الدكتور محمَّد أحمد إسماعيل الخاروف ، ص : ٨٩] .

(٤) بعد أن عُرِّبت الدَّواوين أيام عبد الملك بن مروان .

ووضع المنائر[1] ، وأعطى النَّاس ، وأعطى المجذومين[2] ، وقال لهم : لا تسألوا النَّاس ، وأعطى كلَّ مُقْعَد خادماً ، وكلَّ ضرير قائداً .

وهو باني جامع دمشق الكبير (المسجد الأُموي) ، الَّذي لا يعرف في الآفاق أَحسن بناء منه ، بدأ ببنائه في ذي القعدة سنة ٨٨ هـ ، وأَتَمَّه أَخوه سليمان ، وهدم مسجد المدينة المنوَّرة والبيوت المحيطة به ، ثُمَّ بناه بناءً جديداً ، وصفَّح الكعبة المشرَّفة والميزاب والأَساطين[3] في مكَّة ، وبنى صخرة بيت المقدس ، عقد عليها القبَّة[4] ..

كتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز ، واليه على المدينة المنوَّرة ، في تسهيل الثَّنايا وحفر الآبار في البلدان ، وأَمره أَن يعمل الفوَّارة بالمدينة ، فعملها وأَجرى ماءها ، فلَمّا حجَّ الوليد ورآها أَعجبته ، فأَمر لها بقُوَّام يقومون عليها ، وأَمر أَهل المسجد أَن يستقوا

---

(١) المنائر : المآذن ، والمنار : العَلَم يجعل للطَّريق ، أو الحد للأَراضين ، [اللِّسان : نور] .

(٢) ومنع المجذومين من الخروج مع النَّاس ، (حجر صحِّي خوفاً من العدوى) ، وأجرى لهم الأَرزاق .

(٣) الأَساطين : السَّواري .

(٤) البداية والنِّهاية : ٩/١٦٤ ، تاريخ الدُّول الإسلاميَّة (الفخري) : ١٢٧

منها ، وكتب إلى البلدان جميعها بإصلاح الطُّرق ، وعمل الآبار[1] .

لقد كان الوليد بن عبد الملك شديد الكلف بالعمارات والأبنية واتّخاذ المصانع والضّياع ، وكان النّاس يلتقون في زمانه فيسأل بعضهم بعضاً عن الأبنية والعمارات ، وكان أخوه سليمان يحبُّ الطّعام والنّساء ، فكان النّاس في خلافته إذا التقوا سأل بعضهم بعضاً عن الطّعام والنّساء ، وكان عمر بن عبد العزيز صاحبَ عبادة وتلاوة ، وكان النّاس إذا تلاقوا في أيّامه يسأل بعضهم بعضاً ماوِرْدُك اللّيلة ، وكم تحفظ من القرآن ، وكم تقوم من الشّهر[2] ؟

يعدُّ عصر الوليد بن عبد الملك صفحة جليلة خالدة في تاريخ الإسلام ، لقد دخلت جيوشه الصّين ، وكانت سنة ٩٣ هـ قمّة مجده الخالد ، عندما كانت يمناه في الدّيْبُل والسّند ، ويسراه في طليطلة والأندلس ، وناظراه نحو القسطنطينيّة .

مات الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦ هـ (٧١٥ م) ، وكان آخر ماتكلّم به : « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله » ، تغمّده الله برحمته ، وجزاه عن أُمّة الإسلام خير الجزاء .

☆ ☆ ☆

---

(١) الكامل في التّاريخ : ١٠٩/٤

(٢) الكامل في التّاريخ : ١٣٧/٤ ، والفخري : ١٢٧

الحجّاج بن يوسف الثَّقفي

« إنّي أيقظت رأيي وأنمت هـواي ، وأدنيت السَّيِّد المطـاع في قـومـه ، وولّيت الحرب الحـازم في أمره ، وقلّدت الخراج المـوفر لأمـانتـه ، وقسمت لكلّ خصم من نفسي قسماً أعطيتـه حظّـاً من لطيف عنـايتي ونظري ، وصرفت سيفي إلى النطَف[1] المسيء ، والثّـواب إلى المحسن البريء ، فخاف المريب صولة العقاب ، وتمسّك المحسن بحظّه من الثّواب » .

[الحجّاج بن يوسف الثّقفي]

أبو محمَّد الحجَّاج بن يوسف بن الحكم بن أَبي عقيل بن مسعود بن عامر بن معتِّب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف ، وثقيف : قَسِي بن منبّه بن بكر بن هوازن[2] .

أُمُّه : الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثَّقَفي .

---

(1) النطَف : العيب . ونطِفَ نَطَفاً ونطافة فهو نطف : عاب وأراب . [اللّسان : نطف] .

(2) مختصر تاريخ ابن عساكر : ٦/٢٠٠

ولد بمدينة الطَّائف سنة ٤٠ هـ (٦٦٠ م) على الأرجح[١] .

ونحن هنا لسنا في هذه اللَّمحة التَّاريخيَّة عن حياة أبي محمَّد الحجَّاج بن يوسف الثَّقفي في مقام القضاة ، ولسنا في موقف من يؤرِّخ لحياة الحجَّاج كلِّها ، لنعلم كلَّ ما للرجل وكلَّ ما عليه ، ولكنَّنا هنا نورد نبذة عن إصلاحات قائد قام بإصلاحات داخليَّة في إمارته ، وبنى القاعدة المتينة السَّليمة لفتح جبهة عريضة ، جبهة شرقيَّة هو قائدها الأعلى ، امتدَّت من المحيط الهندي إلى بحر خُوارزم ، ويكفيه وضوح الرُّؤيا في هذه الجبهة ، ألا وهو فتح الصِّين ، فلقد كتب إلى قتيبة بن مسلم الباهلي ، قائد محور الشَّمال الشَّرقي ، وإلى محمد بن القاسم الثَّقفي ، قائد محور الجنوب الشَّرقي : « أيُّكما سبق إلى الصِّين فهو عامل عليها ، وعلى صاحبها »[٢] .

نشأ الحجَّاج شابّاً لبيباً فصيحاً بليغاً ، حافظاً للقرآن الكريم[٣] ، كان يقرأ القرآن كلَّ ليلة ، وقال أبو عمرو بن العلاء : ما رأيت أفصح منه ـ من الحجَّاج ـ ومن الحسن البصري[٤] ، وكان

---

(١) وقيل : ٣٩ هـ أو ٤١ هـ .

(٢) تاريخ اليعقوبي : ٢٨٩/٢

(٣) البداية والنِّهاية : ١١٩/٩

(٤) الحسن بن يسار البصري ، أبو سعيد ، تابعي : [٢١ ـ ١١٠ هـ = ٦٤٢ ـ ٧٢٨ م] ، كان إمام أهل البصرة ، وحبر الأمَّة في زمنه ، وهو أحد العلماء =

الحسن أفصح منه[1] . وقال عقبة بن عمرو : « ما رأيت عقول النّاس إلاّ قريباً بعضها من بعض ، إلاّ الحجّاج وإياس بن معاوية[2] ، فإنّ عقليهما كانا يرجحان على عقول النّاس »[3] .

وقال الحسن البصري : « وقذتني[4] كلمة سمعتها من الحجّاج ، سمعته يقول على هذه الأعواد : إنّ امرأ ذهبت ساعة من عمره في غير ما خُلِق له لحريٌّ أن تطول عليها حسرته إلى يوم القيامة »[5] .

وقال ابن عون : كنت إذا سمعت الحجّاج يقرأ ، عرفت أنّه طالما درس القرآن[6] .

وقال قتيبة بن مسلم الباهلي : خطبنا الحجّاج بن يوسف فذكر

= الفقهاء الفصحاء الشّجعان النّسّاك ، ولد بالمدينة ، وشبّ في كنف عليّ رضي الله عنه ، عظمت هيبته في القلوب ، فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم ، لا يخاف في الحقّ لومة . [الأعلام : ٢٣٦/٢] .

(١) مختصر ابن عساكر : ٢٠٢/٦ ، والبداية والنّهاية : ١١٩/٩

(٢) إياس بن معاوية المزني : [٤٦ ـ ١٢٢ هـ = ٦٦٦ ـ ٧٤٠ م] ، قاضي البصرة ، وأحد أعاجيب الدّهر في الفطنة والذّكاء ، يضرب المثل بذكائه وزكنه (والزّكن التّفرّس في الشيء بالظّن الصّائب) ، [الأعلام : ٣٣/٢] .

(٣) مختصر ابن عساكر : ٢٠٢/٦ ، حيث النّصّ : « فإنّ عقولهما كانت ترجح على عقول النّاس » .

(٤) الوقذ : شدّة الضّرب ، [اللّسان : وقذ] .

(٥) البداية والنّهاية : ١٢٣/٩

(٦) مختصر ابن عساكر : ٢٠١/٦

القبر فما زال يقول : إنَّه بيت الوحدة ، وبيت الغربة ، حتَّى بكى وأبكى من حوله[1] .

دخل أُبيٌّ بن الإباء على الحجَّاج فقال : أصلح الله الأمير ، موسوم بالميل ، مشهور بالطَّاعة ، خرج أخي مع ابن الأشعث[2] ، فحُلِّقَ على اسمي ، وحرمت عطائي ، وهُدم منزلي ، فقال : أما سمعت ماقال الشَّاعر :

جانيكَ مَن يَجْني عليكَ وَقَدْ تُعدي الصِّحاحَ مَبارِكُ الْجَرَبِ
ولَرُبَّ مأخوذٍ بذنبِ قرينهِ ونجا المقارِفُ صاحبُ الذَّنبِ

قال : أيُّها الأمير ، سمعت الله يقول غير هذا ، قال : وما قال جلَّ ثناؤه ؟ قال : ﴿ قَالُوا يا أيُّها العَزِيزُ إنَّ لَهُ أباً شَيْخاً كَبيراً فَخُذْ أحَدَنا مَكانَهُ إنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنين ، قَالَ مَعَاذَ اللهِ أنْ نَأْخُذَ إلاَّ مَنْ وَجَدْنا مَتَاعَنا عِنْدَهُ إنَّا إذاً لَظَالِمُون ﴾ ، [يوسف : ١٢/٧٨ و ٧٩] ، قال الحجَّاج : يا غلام ، اُردُد اسمه ، وابنِ داره ، وأعطه عطاءه ، ومُرْ منادياً ينادي : صدق الله وكذب الشَّاعر[3] .

---

(١) مختصر ابن عساكر : ٦/٢٠٠

(٢) عبد الرَّحمن بن محمَّد بن الأشعث بن قيس الكندي ، أمير من القادة الشُّجعان الدُّهاة ، خلع الحجَّاج وعبد الملك سنة ٨١ هـ ، قتل سنة ٨٥ هـ [الأعلام : ٣/٣٢٣] .

(٣) مختصر ابن عساكر : ٦/٢٠٩

وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحَجَّاج : أمَّا بعد ، إذا ورد إليك كتابي هذا فابعث إليَّ برأس أسلم بن عبد البكري ، لما قد بلغني عنه ، فلَمَّا ورد عليه الكتاب أحضره ، فقال : أعزَّ الله الأمير ، أمير المؤمنين الغائب وأنت الحاضر ، قال الله تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا إنْ جاءَكُم فَاسِقٌ بِنَبأ فَتَبَيَّنُوا أن تُصيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى مَافَعَلْتُم نَادِمينَ ﴾ ، [الحجرات : ٤٩/٦] ، وما بلغه عنِّي فباطل ، فاكتب إليه : إنِّي أعُول أربعاً وعشرين امرأة ، مالهن بعد الله كاسبٌ غيري ، فقال : ومن لنا بتصديق ذلك ؟ قال : هنَّ بالباب أصلح الله الأمير ، فأمر بإحضارهن ، فلما دخلن عليه جعل يسائلهن ، فهذه تقول : عمَّته ، والأخرى تقول : خالته ، والأخرى : زوجته ، إلى أن انتهى إلى جارية فوق الثانية ودون العشاريَّة فقال لها : من أنت منه ؟ قالت : ابنته أصلح الله الأمير ، ثمَّ جثت بين يديه وأنشأت تقول :

أحَجَّاجُ لَمْ تشهَدْ مَقامَ بناتِهِ ... وَعمَّاتِهِ يَنْدُبنَهُ اللَّيلَ أجْمَعا
أحَجَّاجُ كم تَقْتُل بهِ إن قتلتَهُ ... ثمانـاً وعَشْراً واثنتين وَأرْبَعا
أحَجَّاجُ مَنْ هذا يقومُ مَقامَهُ ... علينا فمهلاً أن تزدنا تَضَعْضُعا
أحجّاجُ إمَّا أنْ تجودَ بِنِعْمَةٍ ... علينا وَإمَّا أن تُقَتِّلْنا مَعا

فما استتَمّت كلامها حتَّى أسبل الحجَّاج دمعه من البكاء ، وقال : والله لاأعنت الدَّهر عليكن ، فلا زدتُكن تضعضعا ، وكتب

إلى عبد الملك بخبر الرَّجل والجارية ، فكتب إليه عبد الملك : إن كان كما ذكرت فأحسن له الصِّلة ، وتفقَّد الجارية ، وعجِّل بسراحهن ، ففعل ماأمره[1] .

هذا جانب يسير من سيرة الحجّاج الَّذي نشأ بالطَّائف ، كان وأبوه يعلِّمان الغلمان فيها[2] ، ثمَّ انتقل إلى الشَّام ، فلحق برَوْح بن زِنباع[3] وزير عبد الملك بن مروان ، فشكا عبد الملك إلى رَوْح أنَّ الجيش لا ينزل أفراده لنزوله ، ولا يرحلون لرحيله ، فقال رَوْح : عندي رجل تولِّيه ذلك ، فولَّى عبدُ الملك الحجَّاج أمر الجيش ، فكان لا يتأخَّر أحد في النُّزول والرَّحيل .

ثمَّ ولاَّه عبد الملك أمر إنهاء ثورة عبد الله بن الزُّبير ، فزحف إلى الحجاز ، وحاصر مكَّة المكرَّمة ، وقتل عبدَ الله وفرَّق جموعه ، فولاَّه عبد الملك مكَّة والمدينة والطَّائف ، ثمَّ ولاَّه العراق والثَّورة قائمة فيه ، فقمع الثَّورة ، وثبتت له الإمارة عشرين سنة .

---

(١) الكامل في التَّاريخ : ١٣٢/٤ ، مختصر ابن عساكر : ٢١٠/٦ ، البداية والنهاية : ١٢٤/٩

(٢) البداية والنهاية : ١١٨/٩

(٣) رَوْح بن زِنْباع [ت : ٨٤ هـ = ٧٠٣ م] : أبو زرعة ، أمير فلسطين ، وسيد اليمانيَّة في الشَّام وقائدها وخطيبها وشجاعها ، قيل : له صحبة ، كان عبد الملك بن مروان يقول : جمع رَوْح طاعة أهل الشَّام ، ودهاء أهل العراق ، وفقه أهل الحجاز ، [الأعلام : ٣٤/٣] .

ومن إصلاحاته : بناء مدينة واسط[1] سنة ٨٤ هـ ، وفرغ منها سنة ٨٦ هـ ، وجعلها مقرّ حكمه ، وأسكن أهل الشَّام فيها ، وكان الحجّاج يثق بجند الشَّام ثقة كبيرة ، ويعتمد عليهم في قمع الفتن والثّورات وإخضاع الأمصار ، وفتح البلاد ، وتعلّل الحجّاج بأنّه أراد بنقل جند الشَّام إلى واسط أن يمنعهم من إساءة معاملة السُّكان في ربوع الكوفة والبصرة .

وأصلح قنوات الرّيّ الّتي تخرج من نهري دِجلة والفرات ، وأعاد فتح القنوات ، أو الأقنية القديمة المردومة ، وشقّ أقنية جديدة ، كما اهتمّ بإصلاح السُّدود ، وبإحياء الأرض الموات ، أو الأرض البور .

واهتمّ بتجفيف المستنقعات ، والّتي هي (البطائح)[2] ، أي الأهوار حالياً ، فسدّ البثوق[3] الّتي تسبب المستنقعات ، واستصلح

---

(١) واسِطُ : سُمّيت بذلك لأنّها متوسّطة بين البَصْرة والكوفة . لأنّ منها إلى كُلّ واحدة منها خمسين فرسخاً ، لا قول فيه غير ذلك إلاّ ماذهب إليه بعض أهل اللُّغة حكاية عن الكلبي أنّه كان قبل عمارة واسط هناك موضع يسمّى واسط قَصَب ، فلما عمّر الحجّاج مدينته سمّاها باسمها ، [معجم البلدان : ٣٤٧/٥] .

(٢) البطيحة : مابين واسط والبصرة ، وهو ماء مستنقع ، لا يرى طرفاه من سَعَته ، وهو مَغيض ماء دجلة والفرات ، [اللّسان : بطح] .

(٣) البَثْقُ : كسرك شطَّ النّهر لينبثق ماؤه ، واسم ذلك الموضع البَثق والبِثق . وقيل : هو منبثق الماء وجمعه بثوق ، وقد بثق الماءُ وانبثق عليهم إذا أقبل عليهم ولم يظنّوا به ، [اللّسان : بثق] .

الأراضي الَّتي كانت تغمرهـا الميـاه ، وأنفـق عليهـا : ٣,٠٠٠,٠٠٠ درهم[١] .

وأوقف هجرة الفـلاحين من قُرَى أرض السَّـواد[٢] ، من الرِّيف ، إلى البصرة والمـدن الكبرى ، لقـد أضرَّت الهجرة بـالـزِّراعـة وتربيـة الحيـوان ، لفقـد اليـد العـاملـة الخبيرة المـدرَّبـة ، لم يـوقف الحجَّـاجُ تـدفُّقَ الهجرة إلى المـدن ، بـل أمر بـإرجـاع المهـاجرين إلى قراهم ، وأمر أن يختم على يد كلٌّ منهم اسم قريته ليعاد إليها .

وحظر على الفلاحين ذبح البقر ، والجواميس الَّتي استقدمها من الهنـد ، لكي تبقى في خـدمـة فِلاحـة الأَرض ، وليكـون روثهـا سماداً طبيعياً للأَرض .

وأصلح النَّقد وزناً ونوعاً[٣] ، وجعل للموازين نظامـاً لا تلاعب فيه ، وكذلك المكاييل والمقاييس .

---

(١) فتوح البلدان ، ص : ٣٠٢

(٢) أرض السَّواد : الأَراضي الواقعة بين نهري دجلة والفرات ، جنوبي موقع بغـداد ، « سُمِّيت بـذلـك لـسواده بـالـزُّروع والنخيـل والأشجـار » ، [معجم البلدان : ٢٧٢] .

(٣) وهو أوَّل من ضرب درهماً عليه : لاإله إلا الله محمَّـد رسول الله ، وأوَّل من اتَّخـذ المحامل على جانبي الجمال ، [اللِّسان : حمل] .

ووضع علامات الإعجام في الخطّ العربي ، للتمييز بين الحروف المتشابهة في الرّسم ، كالباء والتّاء والثّاء ، والدّال والذّال ، والجيم والحاء والخاء .. كما عني بنقل صور الحركات : الضَّم والفتح والكسر ، لمعالجة اللّحن الّذي انتشر بين القرّاء ، وفي أيّامه نُقِّطت المصاحف .

واتّخذ الحجّاج (المناظر)[1] بينه وبين قزوين ، فكان إذا دخّن أهل قزوين دخّنت المناظر إن كان نهاراً ، وإن كان ليلاً أشعلوا نيراناً ، فترسل النجدات إليهم مثلاً ، لقد كانت المناظر متّصلة بين واسط وقزوين . وهذه المناظر تعدُّ نموذجاً من نماذج البريد السّريع آنذاك .

هذا .. وحرص الحجّاج على الجهاد ، ففتوح ما وراء النّهر والسّند في صحيفته ، وكان فيه سماحة بإعطاء المال لأهل القرآن الكريم ، فكان يعطي على القرآن كثيراً ، وتجنّب المحارم من حيث الشّراب والنّساء والأموال ، وحينما مات لم يترك إلاّ ثلاث مئة درهم[2] .

لقد شنّع على الحجّاج أعداؤه ، وحرّفوا عليه بعض الكَلِم ،

---

(١) المَنْظَرة : موضع في رأس الجبل ، فيه رقيب ينظر العدوّ ، يحرسه ، والمنظرة : المرقَبة . [اللّسان : نظر] .

(٢) البداية والنهاية : ١٣٢/٩ و ١٣٩

وزادوا فيما يحكونه عنه بشاعات وشناعات ومبالغات[1] .

كانت فيه شهامة عظيمة ، **وكان لاشكَّ في سيفه رهق** ، وكان يغضب غضب الملوك ، مفتاح سيرته أنّه كان أُمويّاً ، يميل إلى بني أُميَّة ميلاً كاملاً ، أُوقف حياته على نصرتهم وتوطيد أركان ملكهم ، لاتأخذه في نصرتهم لومة لائم .

ترك الحجَّاج بن يوسف الثَّقفي أثراً كبيراً في التَّاريخ الإسلامي ، وصوَّره عدد من المؤرِّخين ـ الَّذين كتبوا ودوَّنوا آراءهم في ظلِّ الخلافة العباسيَّة ـ مستبداً طاغية ، متناسين ظروف الثَّورات والفتن المتكرِّرة في العراق آنذاك[2] ، دفعته لسفك الدِّماء ، ولا شكَّ أن سياسته كانت أكبر مثبِّت لأركان الحكم الأُموي ، فهو لا يعمل في سبيل خدمة أغراضه الشَّخصيَّة ، ولا لثراء نفسه[3] وحاشيته ، فلم يترك ثروة مطلقاً ، لقد ترك قرآنه وسلاحه ، وبضع مئات من الدَّراهم .

---

(١) منها مبالغتهم في عدد من قَتَلَ . يذكر المسعودي : ١٧٥/٣ : وأحصي من قتله صبراً سوى من قتل في عساكره وحروبه فوجد مئة وعشرين ألفاً . ومات وفي حبسه خمسون ألف رجل ، وثلاثون ألف امرأة ، منهن ستة عشر ألفاً مجرَّدة ..

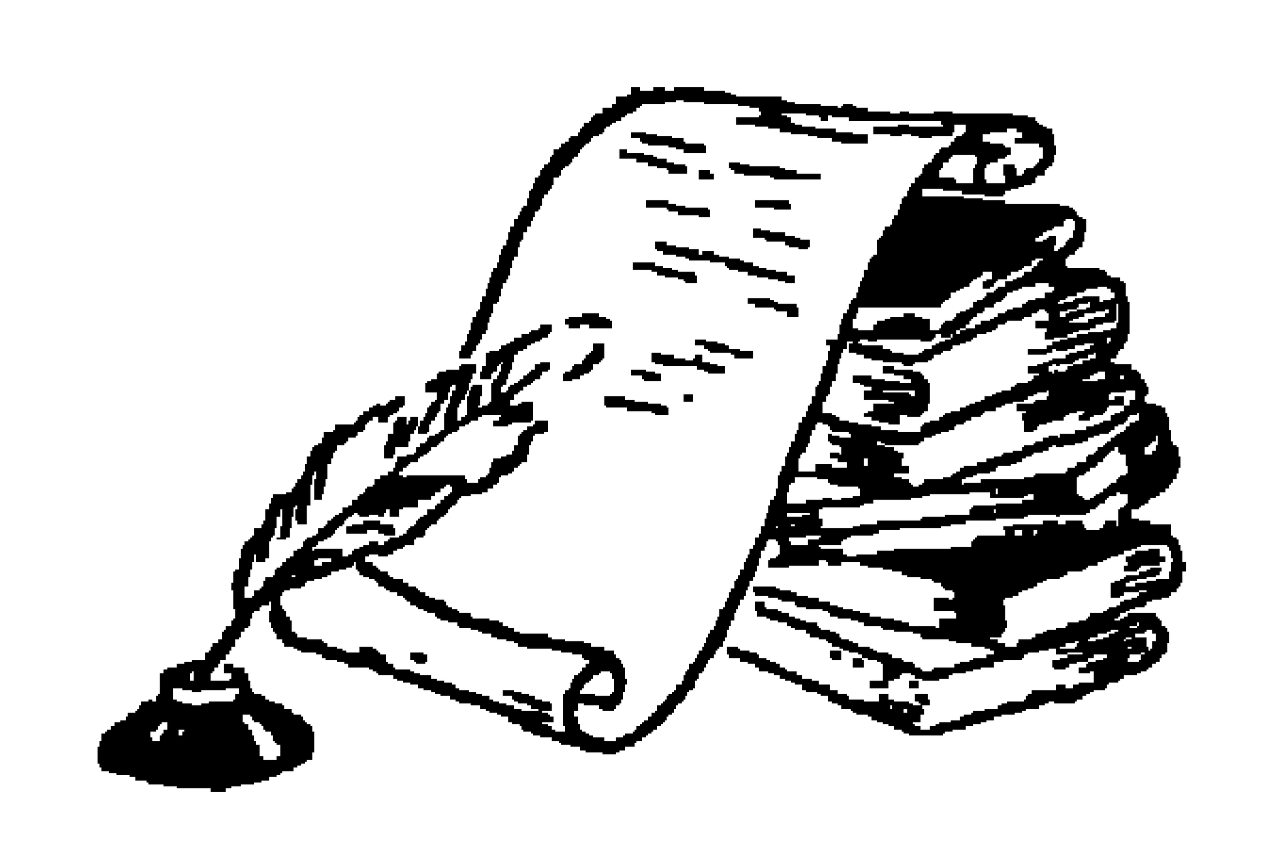
(٢) لذلك قيل : كان الحجَّاج نقمة بما سلف للسُّكان من خروج وخذلان وعصيان وفتن وثورات ، تكاد تكون دائمة مستمرة .

(٣) كتب الحجَّاج إلى الوليد بن عبد الملك : لأجمعن المال جمع من يعيش أبداً ، ولأنفقنَّه تفريق من يموت غداً ، [العقد الفريد : ٢٠٨/٤] .

طلب الوليد منه أن يكتب إليه سيرته ، فكتب إليه :

« إنّي أيقظت رأيي ، وأنمت هواي ، وأدنيت السَّيِّد المطاع في قومه ، ووليّتُ الحربَ الحازم في أمره ، وقلّدت الْخَراج الموفّر لأمانته ، وقسمت لكلّ خصم من نفسي قسماً أعطيته حظاً من نظري ولطيف عنايتي ، وصرفت السَّيف إلى النَّطف[1] المسيء ، والثَّوابَ إلى المحسن البريء ، فخاف الْمُرِيب صولةَ العقاب ، وتمسّكَ المحسن بحظّه من الثَّواب »[2] .

☆ ☆ ☆



(١) النَّطَف : العيب ، ونَطِفَ نَطَفاً ونطافة ونُطوفة فهو نطف : عاب وأراب . [اللّسان : نطف] .

(٢) عيون الأخبار : ١٠/١

قتيبَة بن مسلم الباهِلي

« ساد الأحنفُ بن قيس بحلمه .
ومالك بن مِسْمَع بحبِّ العشيرة له ،
وقتيبة بن مسلم بدهائه ، وساد
المهلّب بهذه الخلال كلها » .

[العقد الفريد : ٢٨٨/٢]

أبو حفص قتيبة بن أبي صالح مسلم بن عمرو بن الحصين بن ربيعة بن خالد بن أُسيد الخير بن قضاعي بن هلال بن سلامة بن ثعلبة بن وائل بن معن بن مالك بن أَعْصُر بن سعد بن قيس عَيْلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان الباهلي .

كان أبوه مسلم كبيرَ القدر عند يزيد بن معاوية[1] ، قتل مع مصعب بن الزُّبير سنة ٧٢ هـ ، وهو صاحب الْحَرُون[2] ، وكان الحرون من الفحول المشاهير يضرب به المثل ، جاء في اللّسان (حرن) : والْحَرُونُ اسم فَرَس كان لباهلة ، إليه تنسب الخيل الحرونيَّة ، والحرونُ : اسم فرس مسلم بن عمرو الباهلي في الإسلام ،

---

(١) وفيات الأعيان : ٨٧/٤

(٢) أنساب الخيل : ١١٧ و ١٢٧

كان يسابق الخيل ، فإذا استُدرَّ[1] جريه ، وقف حتّى تكاد تسبقه ، ثمّ يجري فيسبقها .

ولد قتيبة[2] في بيت فروسية سنة ٤٩ هـ = ٦٦٩ م ، من قبيلة خاملة الذّكر ، تبرّأ النّاسُ منها ، فلقد قيل : باهلة[3] قبيلة من أخسّ قبائل العرب ، ويضرب بلؤمها المثل ، ولم تزل العرب تصف باهلة باللُّؤم في الجاهلية والإسلام ، ثمّ خفت عنهم تلك السّمة وشرفت بقتيبة بن مسلم وبنيه ، حتّى قيل[4] :

إذا ما قريشٌ خلا ملكها   فإنّ الخلافة في باهِلَهْ

وكانت العرب تستنكف من الانتساب إلى هذه القبيلة ، حتّى قال الشّاعر :

---

(١) الدّرير في الخيل : السّريع منها ، [اللّسان : درر] .
(٢) قُتَيْبة : تصغير قِتبة ، بكسر القاف ، وهي واحدة الأقتاب ، والأقتاب : الأمعاء ، وبها سُمّي الرّجل ، والنّسبة إليه قُتَبيٌّ ، [اللّسان : قتب] .
(٣) التّبهُّل : العناء بالطّلب ، وأبهل الرّجُلَ : تركه ، وأبهل النّاقةَ : أهملها ، وناقة باهل : مسيبة ، وامرأة باهل : لا زوج لها ، والباهل : الّذي لا سلاح معه ، والمباهلة : الملاعنة ، والبهل : المال القليل ، وباهلة : اسم قبيلة من قيس عَيْلان ، وهو في الأصل اسم امرأة من همدان كانت زوجة معن بن مالك بن أعْصُر بن سعد بن قيس عَيْلان فنسب ولدها إليها ، [اللّسان : بهل] .
(٤) بلوغ الأرب : ١٠٩/٢

ومــا ينفَـعُ الأصــلُ من هــاشمٍ   إذا كانت النَّفسُ من بــاهِلــهْ

وقال آخر :

ولــو قيــلَ للكلب يــا بــاهِليٌّ   عَوَى الكلبُ من لؤم هـذا النَّسـب

ويحكى أنَّ أعرابياً لقي شخصاً في الطَّريق فسأله : ممَّن أنت ؟ فقال : من باهلة ، فرثى له الأعرابي ، فقال ذلك الشَّخص : وأزيدك أني لست من صميمهم ، ولكن من مواليهم ، فأقبل الأعرابي عليه يقبِّل يديه ورجليه فقال له : ولم ذاك ؟ فقال : لأنَّ الله تبارك وتعالى ماابتلاك بهذه الرَّزيَّة في الدُّنيا إلاَّ ليعوِّضك الجنَّة في الآخرة .

وقيل لبعضهم : أيسرُّك أن تدخل الجنَّة وأنت باهلي ؟ فقال : نعم ، بشرط ألاَّ يعلم أهل الجنَّة أنِّي باهليّ[1] .

سئل النَّسابة حسين بن بكر الكلابي عن سبب ماعلق بباهلة من خمول الذِّكر وتبرُّؤ النَّاس منها ، فأجاب : لقد كان فيها غناء وشرف ، ولم يضعها إلاَّ أشراف أخوها فزارة وذبيان عليها بالمآثر[2] .

« لم يضع باهلة وعنيٌّ عند العرب ، لقد كان بينهما غناء

(١) وفيات الأعيان : ٩٠/٤

(٢) وفيات الأعيان : ٨٦/٤

وشرف ، ولم يضعها إلاّ أشراف أخو يها فـزارة وذبيـان عليهما بـالمـآثر فدَنُؤوا بالإضافة إليهما »[1] .

كتب عبـد الملـك بن مروان إلى الحجّـاج بن يـوسف الثَّقفي : انظر لي رجلاً حازماً ماضياً لأمرك ، فسمّى الحجّـاجُ قتيبـةَ بن مسلم الباهلي ، فكتب إليه : وَلِّه .

قتيبة ، أمير الرَّيّ[2] ثم أمير خُراسان زمن عبد الملك بن مروان من جهة الحجَّاج بن يوسف الثَّقفي ، لأنَّـه كان أمير العراقَيْن[3] وكلّ ما كان يليهما ، فخراسان كانت مضافة إلى الحجّاج ، لقد تولَّى قتيبـة خُراسان بعد يزيد بن المهلَّب بن أبي صُفْرَة[4] .

وكان قتيبة شهماً ، مقداماً ، نجيباً ، فارساً ، خلوقاً ، داهية ..

---

(١) وفيات الأعيان : ٩١/٦

(٢) الرَّيُّ اليوم ضاحيـة جنوبيَّة تـابعـة لمـدينـة طهران بعـد توسُّع الأخيرة توسُّعـاً كبيراً .

(٣) العراقان : الكوفة والبصرة .

(٤) يـزيـد بن المهلَّب [٥٣ ـ ١٠٢ هـ] : أمير من القـادة الشُّجعـان الأجـواد ، ولي خُراسـان بعـد وفـاة أبيــه سنــة ٨٢ هـ ، فمكث نحواً من ستّ سنين ، عـزلــه عبد الملـك برأي الحجّـاج ، ثمَّ ولاَّه سليمـان بن عبـد الملـك ، ثمَّ نقل إلى إمـارة البصرة ، وكان من عاقبة أمره أن نـابـذ بني أميّـة الخلافـة ، فقتل بعـد حروب كثيرة مشهورة ، [الأعلام : ١٨٩/٨] .

ولما قدم قتيبة والياً على خُراسان قام خطيباً ، فسقطت المِخْصَرَة[1] من يده ، فتطيَّر بها أهل خُراسان ، فقال : أيُّها النَّاس ، ليس كما ظننتم ولكنه كما قال الشَّاعر :

فألقت عصاها واستقرَّت بها النَّوى كما قرَّ عيناً بالإيابِ المسافِرُ[2]

وورد هذا الخبر برواية أُخرى ، نصُّها : لما ولي قتيبة بن مسلم خراسان ، صعد المنبر ، فسقط القضيب من يده ، فكره ذلك وتشاءم به ، فقام إليه رجل فقال : ليس كما ذهب الأمير ، ولكن كما قال الشَّاعر :

فألقت عصاها واستقرَّت بها النَّوى كما قرَّ عيناً بالإيابِ المسافِرُ[3]

الرِّواية الأُولى تظهر من خلالها صورة قتيبة سريع البديهة ، صاحب العزيمة ، واليقين فيما جاء من أجله .

والرِّواية الثَّانية تظهر فطنة فرد من أفراد الرَّعيَّة ، يبعد عن قتيبة موقف التشاؤم ، وينقله إلى التَّفاؤل ببيت من الشِّعر ، وما أظنُّ أنَّ صفات قتيبة ترجِّح هذه الرِّواية الأخيرة .

---

(١) المِخْصَرَةُ : شيء يأخذه الرَّجل بيده ليتوكَّأ عليه ، مثل العصا ، [اللِّسان : خصر] .

(٢) العقد الفريد : ٢٠٣/٣

(٣) وفيات الأعيان : ٤٧٥/١

وخرجت خارجة بخراسان على قتيبة ، فأهمّه ذلك ، فقيل له : ما يهمّك منهم ! وجّه إليهم وكيع بن أبي سود ، فإنّه يكفيكهم ، فقال : لا ، إنّ وكيعاً رجل به كِبْر ، يحتقر أعداءه ، ومن كان هكذا قلّت مُبالاته بأعدائه فلم يحترس منهم ، فيجدُ عدوُّه غِرَّة منه[1] .

واتّهم قتيبةُ أبا مِجْلز على بعض الأمر ، قال : أصلح اللهُ الأمير ، تثبَّت ، فإنّ التثبُّت نِصف العفو[2] .

ودخل محمد بن واسع على قتيبة في خُراسان في مَدْرَعة صوف[3] ، فقال له : ما يدعوك إلى لباس هذه ؟ فسكت ، فقال له قتيبة : أُكلّمك ولا تجيبُني ؟ قال : أكره أن أقول زهداً فأُزكّي نفسي ، أو أقول فقراً فأشكو ربّي ، فما جوابك إلاّ السّكوت[4] .

ويبقى قتيبة أميراً فاتحاً ، من مفاخر العرب المسلمين ، فهو مع بطولته ودماثة أخلاقه ، داهيةٌ ، عظيمُ المكانة ، مرهوبُ الجانب ، رَوِيٌّ لا يتعجّل ، وراوية للشّعر عالمٌ به ، وحسب ابن آدم أن تُعَدَّ معايبه ، فلقد كانت فيه حِدَّة واعتداد بنفسه فقط .

---

(١) العقد الفريد : ٩٨/١

(٢) العقد الفريد : ١٥٦/٢

(٣) المدْرَعة : ضرب من الثياب ولا تكون إلاّ من الصُّوف خاصة ، [اللّسان : درع] .

(٤) العقد الفريد : ٢٧٢/٢ و ٢٢٥/٤

ويبقى الإنسان بعمله ، يرفعه أو يخفضه ، لا بنسبه ، ويبقى بمآثره لا بحسبه فقط ، فكم من الَّذين لم يملكوا إلاَّ شرف الانتساب إلى قبيلة علا ذكرها ، وسما صيتها ، وذاعت مفاخرها ، نسيهم التَّاريخ ، لأنَّ هذا الانتساب الوراثي ـ والَّذي لا فضل فيه للإنسان ـ لم يقرن بجليل الأعمال ، وقتيبة من الفاتحين الأبطال الخالدين ، ألا يكفيه أنَّه « ما كُسِرت له راية »[1] ، فهو من سادات الأمراء وخيارهم ، وكان من القادة النُّجباء الكبراء والشُّجعان ، وذوي الحرب ، والفتوحات الخالدة الباقية ، وقد هدى الله على يديه خلقاً لا يحصيهم إلاَّ الله ، فأسلموا ودانوا لله عزَّ وجلَّ[2] .

« الذَّمُّ فيه مدح » ، لم يكن شحيحاً ـ كما رأى بعضهم ـ إنَّما كان حريصاً لم يبذِّر أموال الأمة .

ويكفي قتيبة أنَّ ميدان عملياته ، كان في منطقة تختلف كلِّيّاً عن طبيعة بيئته ، وسنرى ذلك مفصَّلاً على صفحات قادمة ، فسار بخطوات بطيئة ، ولكنها محسوبة مدروسة ، خُطِّط لها بدقَّة ، مع وضع عدد من الاحتمالات الممكنة ، حسب حسابها ، ووُضِعَت لها الحلول المناسبة ، لذلك .. بقي الفتح خالداً حتَّى يومنا هذا في ماوراء النَّهر وشرقي الصِّين ، فما أضرَّت (باهلةُ) بمواهب قتيبة

(١) البداية والنِّهاية : ١٤٢/٩

(٢) الكامل في التَّاريخ : ١٣٤/٤

العسكريَّة ، بل رفع قتيبةُ (باهلةَ) إلى مكانه سامقة ، حتَّى قيل :

قـومٌ قتيبـــــةُ أمُّهم وأبـــوهم لـولا قتيبـةُ أصبحـوا في مَجْهَـلِ

☆ ☆ ☆

جَيْشُ قتيبة :

كان جيش قتيبة ، حوالي خمسين ألفاً من المجاهدين ، ذكرهم ابن الأثير [البداية والنِّهاية : ٦/٥] على الشَّكل التَّالي :

٩,٠٠٠ من أهل البصرة والعالِيَة[1] .

٧,٠٠٠ من بكر .

١٠,٠٠٠ من تميم .

٤,٠٠٠ من عبد قيس .

١٠,٠٠٠ من الأزْد .

٧,٠٠٠ من الكوفة ، وهذا يساوي : ٤٧,٠٠٠ عربي ، مع :

٧,٠٠٠ من الموالي بقيادة حَيَّان النَّبطي ، وهو ديلمي ـ وقيل : من خُراسان ـ وإنَّما قيل له نبطي للكنته .

☆ ☆ ☆

---

(١) العالِيَةُ : اسم لكل ما كان من جهة نجد من المدينة المنوَّرة ، من قراها وعمايرها إلى تهامة فهي العالية ، وما كان دون ذلك من جهة تهامة فهي السَّافلة ، [معجم البلدان : ٧١/٤] .

ما وَراءَ النَّهْرِ

« جنان الدُّنيا أربع : غوطة دمشق ، وصُغد سمرقند ، ونهر الأُبُلَّة[1] ، وشِعْبُ بَوَّان[2] » .

[معجم البلدان : ٤٠٩/٣]

و [القلقشندي : ٤١٠/٤]

إنَّ منطقة (ماوراء النَّهر) ، كانت ميدان عمليَّات قتيبة ، فأين تقع هذه المنطقة ؟ وما طبيعة تضاريسها وبيئتها ومُناخها وسكانها وممالكها .. ؟

جاء في معجم البلدان : ٤٥/٥ : ماوراء النَّهر ، يراد به ماوراء نهر جَيْحُون بخُراسان ، فما كان في شرقيِّه يقال له بلاد الهياطلة ، وفي الإسلام سمَّوه ماوراء النَّهر ، وما كان في غربيِّه فهو خراسان وولاية خُوارزم ، وخُوارزم ليست من خُراسان ، إنَّما هي إقليم برأسه ، وما وراء النَّهر من أنزه الأقاليم وأخصبها وأكثرها خيراً ، وأهلها يرجعون إلى رغبة في الخير والسَّخاء ، واستجابة لمن دعاهم إليه ، مع

(١) الأُبُلَّة : بلدة على شاطئ دجلة البصرة . في زاوية الخليج الَّذي يدخل إلى مدينة البصرة ، وهي أقدم من البصرة . [معجم البلدان : ٧٧/١] .

(٢) شِعْبُ بَوَّان : بأرض فارس ، بظاهر همدان . [معجم البلدان : ٥٠٣/١] .

قلّة غائلة وسماحة بما ملكت أيديهم ، مع شدَّة شوكة ومنعة وبأس وعدَّة وآلة وكُراع[1] وسلاح . فأمّا الخصب فيها فهو يزيد على الوصف ، ويتعاظم عن أن يكون في جميع بلاد الإسلام وغيرها مثله ، وليس في الدُّنيا إقليم أو ناحية إلاّ ويقحط أهله مراراً قبل أن يقحط ما وراء النَّهر ، ثمَّ إن أُصيبوا في حرٍّ أو بردٍ أو آفة تأتي على زروعهم ، ففي فضل ما يسلم في عرض بلادهم ما يقوم بأودهم ، حتّى يستغنوا عن نقل شيء إليهم من بلاد أُخَر ، وليس بما وراء النَّهر موضع يخلو من العمارة من مدينة أو قرى أو مياه أو زروع أو مراعٍ لسوائمهم ، وليس شيء لابدَّ للنّاس منه إلاّ وعندهم منه ما يقوم بأودهم ، ويفضل عنهم لغيرهم ، وأمّا مياههم فإنَّها أعذب المياه وأخفُّها ، فقد عمَّت المياه العذبة جبالها ونواحيها ومدنها ، وأمّا الدَّوابُّ ففيها من المباح ما فيه كفاية على كثرة ارتباطهم لها ، وكذلك الحمير والبغال والإبل ، وأمّا لحومهم فإنَّ بها من الغنم ما يجلب من نواحي التركمان الغربيّة وغيرها ما يفضل عنهم ، وأمّا الملبوس ففيها من الثّياب القطن ما يفضل عنهم فينقل إلى الآفاق ، ولهم القَزُّ والصُّوف والوبر الكثير والإبريسَم[2] الْخُجَنْدي ، ولا يفضل عليه إبريسم البتَّة .

---

(١) الكُراع : الخيل والإبل والْحُمُر .

(٢) الإبريسَم : الحرير أو الخام منه . معرَّب ، مفرِّح مسخِّن للبدن ، معتدل مقوٍّ للبصر إذا اكتحل به ، [معجم متن اللُّغة : ٢٧٢/١ ، دار مكتبة الحياة ، بيروت] .

وفي بلادهم من معادن الحديد ما يفضل عن حاجتهم في الأسلحة والأدوات ، وبها معدن الذّهب والفضّة والزّيبق الّذي لا يقاربه في الغزارة والكثرة معدنٌ في سائر البلدان إلا بَنْجَهير[1] في الفضّة ، وأمّا الزّيبق والذّهب والنّحاس وسائر ما يكون في المعادن فأغزرها ما يرتفع من ما وراء النّهر .

وأمّا فواكههم فإنك إذا تبطّنتَ[2] الصّغد وأشروسنة وفرغانة والشّاش رأيت من كثرتها ما يزيد على سائر الآفاق .

ويجلب إليها المسك ، والأوبار من السّمّور والسّنجاب والثّعالب وغيرها ما يُحمل إلى الآفاق بعد ذلك .

أمّا سماحتهم[3] ، فإنّ النّاسَ في أكثر ما وراء النّهر كأنّهم في دار واحدة ما ينزل أحد بأحد إلاّ كأنّه رجل دخل دار صديقه ، لا يجد المضيف من طارق في نفسه كراهةً ، بل يستفرغ مجهوده في غاية من إقامة أوده من غير معرفة تقدّمت ، ولا توقّع مكافأة ، بل اعتقاداً للجود والسّماحة في أموالهم ، وهمّة كلّ امرئ منهم على قدره فيما

---

(١) بَنْجهير : مدينة بنواحي بَلْخ فيها جبل الفضّة . [معجم البلدان : ١/٤٩٨] .

(٢) تبطّنتَ : جُلْتَ . [اللّسان : بطن] .

(٣) يصف ياقوت الحموي هنا سماحة أهل المنطقة بعد إسلامهم ، وهذه السّماحة تدل على جذور طيبة ، وأخلاق حميدة في السّكان ، واستعداد ممتاز كي تثمر أخلاق الإسلام ما يصف به ياقوت أهل المنطقة .

ملكت يده ، والقيام على نفسه ومن يطرقه ، قال الإصطخري : ولقد شهدت منزلاً بالصُّغد قد ضُربت الأوتاد على بابه فبلغني أنَّ ذلك الباب لم يُغْلق منذ زيادة على مئة سنة ، لا يُمْنَعُ من نزوله طارقٌ ، وربَّما ينزل باللَّيل بيتاً من غير استعداد المئةُ والمئتان والأكثر بدوابهم ، فيجدون من عَلَف دوابهم وطعامهم ودثارهم ما يعمُّهم من غير أن يتكلَّف صاحب المنزل بشيء من ذلك لدوام ذلك منهم .

وفي (صورة الأرض) لابن حوقل[1] [ص : ٣٨٤] :

وما وراء النَّهر إقليم من أخصب أقاليم الأرض منزلةً ، وأنزهها وأكثرها خيراً ، وأهله يرجعون إلى رغبةٍ في الخير ، واستجابة لمن دعاهم إليه مع قِبْلة غاية عالية ، وسلامة ناجية ، وسماحة بما ملكت أيديهم ، مع شدَّة شوكة ومنعة وبأس ونجدة وعِدَّة وعُدَّة وآلة وكراع وبسالة وسلاح ، وعلم وصلاح ، فأمَّا الخصب بها فليس من إقليم ذُكر في هذا الكتاب إلاَّ يقحط أهله مراراً قبل أن يقحط ما وراء النَّهر مرَّة واحدة .. وأمَّا مياههم فإنَّها أعذب المياه وأبردها وأخفَّها ، قد عمَّت جبالها وضواحيها ومدنها ، هذا إلى التَّمكن من الْجَمَد في جميع أقطارها ، والثُّلوج من جميع نواحيها ..

وفي [ص : ٣٨٥] : وأمَّا فواكههم ، فإنَّك إذا تبطَّنتَ السُّغد

---

(١) طبعة دار الحياة ، سنة ١٩٧٩

وأشروسنة وفرغانة والشّاش ، رأيتَ من كثرتها ما يزيد على سائر الآفاق حتّى ترعاها لكثرتها دوابهم .. ويتابع ابن حوقل فيذكر ما جاء في معجم البلدان ، فيقول :

وأمّا سماحتهم ، فإنّ النّاس في أكثر ما وراء النّهر كأنّهم في دار واحدةٍ ، ما ينزل أحد بأحد إلاّ كأنّه رجل دخل في داره ، لا يجد المُضيفُ من طارق يطرقه كراهية بل يستفرغ جهدَه في إقامة أوده ، من غير معرفة تقدّمت ، ولا توقُّع لمكافأة ، بل اعتقاداً للسّماحة في أموالهم ، وبحسبك أنّك لا ترى صاحب ضيعة يستقلُّ بمؤنته ، إلاّ كانت همّته اقتناء قصر فسيح ، ومنزل للأضياف رحيب ، فتراه عامّة نهاره متنوّقاً[1] في إعداد ما يصلح لمن يطرقه ، وهو متشوّق إلى واردٍ عليه ليكرمه ، فإذا حلّ بأهل ناحيةٍ طارقٌ تنافسوا فيه وتنازعوه .. ولقد شهدتُ آثار منزل بالسُّغد معروفٍ بأن قد ضُربت الأوتاد على باب داره ، وصحّ عندي أنّ بابها مَكَث لم يُغلق زيادة على مئة سنة ، لا يمتنع من نزولها طارق ، وربّما نزل به ليلاً عن بغتةٍ من غير استعداد المئة والمئتان والأكثر من النّاس بدوابّهم وحشمهم ، فيجدون من علف دوابّهم وطعامهم ودثارهم ما يغنيهم عن استعمال رحالهم من غير أن يتكلّف صاحب المنزل أمراً

---

(١) تنوّق في الأمر أي تأنّق فيه ، [اللّسان : نوق] .

بذلك ، أو يتجشَّم عناءً ، لدوام ذلك منهم ومنـه ، وقـد أُقيم على كلّ عمل من يستقلُّ به ، ، وأُعدَّ مايحتـاج إليـه على دوام الأوقـات ، ممـا لايحتاج معه إلى تجديد أمرٍ عنـد طروقهم إيـاه ، وصـاحب المنزل في البشاشة والإقبال والمساواة لأضيافه ، بحيث يعلم كلٌّ من شهد سروره بذلك وإيثاره للسماحة فيما آتاه وتوخّاه ..

أرض فسيحـة واسعـة ، تبعـد عن مركـز الخـلافـة ٣٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ كم .

شتاؤها بارد جداً ، قد تصل درجـة الحرارة فيهـا إلى ٢٠ درجـة دون الصِّفر .

ومياهها وفيرة جداً ، أنهار ، روافـد ، فروع ، ترع ، قنوات .. تشكّل عوائق مائيَّة كبيرة وهامَّة .

مـع وعـورة الطُّرق ، ففي شرق مـاوراء النَّهر ، على حـدود الصِّين ، جبال مرتفعة جـداً ، تصل قممهـا إلى ارتفـاعـات شـاهقـة : ٧٤٣٩ م و ٧٦٩٠ م .

ودويلات منتشرة ، أهمُّها : فرغانة ، الشَّاش ، أُشروسنة ، صغد (وتكتب بـالصَّـاد أو بـالسِّين ، وكـلاهمـا صـواب) ، خـوارزم ، صاغنيان ، الختل .. عواصمها ومدنها الكبرى محصَّنة تحصيناً جيداً .

لقد واجه قتيبة مشكلات حقيقية ، فبعده عن مركز الخلافة ، جعل خطّ مواصلاته طويلاً جداً ، وهو يعمل في طبيعة جغرافية جديدة قاسية ، فالبيئة الجبليّة تحمل صعوبة في تحرُّك الجيش بعدّاته ، وتعرقل طرق تموينه ، وتكثر فيها الكمائن ، وإذا ذكرت الكمائن ذكرت المباغتات وكثرة المفاجآت ، وسهولة الدّفاع بعدد قليل من الجند عن موقع حصين منيع[1] .

والتّاريخ يقف بإجلال تجاه قتيبة ، الّذي تغلّب على كلّ هذه المعضلات ، عندما وطّد الأمن والعدل في خُراسان ، فضمن نقطة انطلاق صحيحة سالمة ، مع استطلاع دائم ، جمع المعلومات الكافية عن بلاد ماوراء النّهر .

جاء في الطّبري : « كان قتيبة إذا رجع من غَزاتِه كلّ سنة ، اشترى اثنَيْ عشر فرساً من جياد الخيل ، واثني عشر هجيناً ، لا يُجاوِز بالفَرس أربعة آلاف ، فيقام عليها إلى وقت الغزو ، فإذا تأهّب للغزو وعسكَرَ ، قيّدتْ وأُضمِرَتْ ، فلا يقطع نهراً بخيل حتّى تخفّ لحومُها ، فيحمل عليها من يحمله في الطّلائع ، وكان يبعث في الطّلائع الفُرسان من الأشراف ، ويبعث معهم رجالاً من العجم ،

---

(١) انظر فصل : مشاكل قتيبة بن مسلم في كتاب : (قتيبة بن مسلم الباهلي) لصالح مهدي عمّاش . ط ١٩٧٨ . سلسلة الأعلام والمشهورين ، رقم ٦ ، ص ١٧ وما بعدها .

مَّن يستنصح على تلك الهجن ، وكان إذا بعث بطليعة ، أمر بلَوْحٍ فَنُقِش ، ثمَّ يشقُّه شقَّتين فأعطاه شقَّة ، واحتبس شقَّة ، لئلا يمثِّل مثلها ، ويأمره أن يدفنها في موضع يصفه له من مخاضة معروفة ، أو تحتَ شجرة معلومة ، أو خربة ، ثمَّ يبعث بعده من يستبريها[1] ، ليعلم أصادِقٌ في طليعته أمْ لا »[2] .

وحشد قتيبة أربعين ألف جندي مجاهد .

ونظَّم خطوط المواصلات ، فسلاح المهندسين المهرة (الفَعَلَة) ، ضمن تذليل صعوبات المواصلات ، وإزالة العوائق ، وإقامة المعابر والجسور فوق العوائق المائية الكثيرة ، مع مجانيق كبيرة دقيقة الرِّمايات .

مع خدمات بريد يربط بين ماوراء النَّهر والكوفة ، حيث الحجَّاج بن يوسف الثَّقفي ، فنيران (المناظر) ودخانها في قمم الجبال ، كانت البريد المستعجل لنقل الأنباء السَّريعة ، بإيقاد النيران برموز متَّفق عليها ، إلى جانب البريد العادي الَّذي تنقله الخيل .

وكان يكمن شتاء بعد تأمين الدِّفء لجنده من حيث اللِّباس

---

(١) أي : يستخلصها من مكانها الَّذي دُفِنَت فيه ، ويعود بها .

(٢) الطبري : ٦/٥٠٤

والخيـام والأخشـاب للوقود ، والطَّعـام لهم ، والعلف لخيلهم ، ليبـدأ الجهاد أيَّام فصل الرَّبيع .

كلٌّ هذا مع ارتباط وثيق بالحجَّاج وأوامره وتوجيهاتـه وخطَّتـه المرسومة ، وممَّـا كتبـه الحجَّـاج إلى قتيبـة : « إذا كنـت قـاصـداً بلاد العدو فكن في مقدَّمـة الجيش ، وإذا قَفَلْتَ راجعـاً فكن في سـاقـة[1] الجيش »[2] ، ليكون درءاً لجنده من أن ينـالهم أحـد بكيـد في هجوم معاكس مباغت ، أو كمين ونحوه .

لقد انطلق قتيبة بن مسلم الباهلي من مدينة مرو[3] إلى مـدينـة كاشْغَر[4] فـوصلهـا بعـد ثـلاث عشرة سنــة ، لقــد كانت الخطـوات بطيئة ، ولكنها كانت مدروسة ، فجاءت خالدة باقية .

☆ ☆ ☆

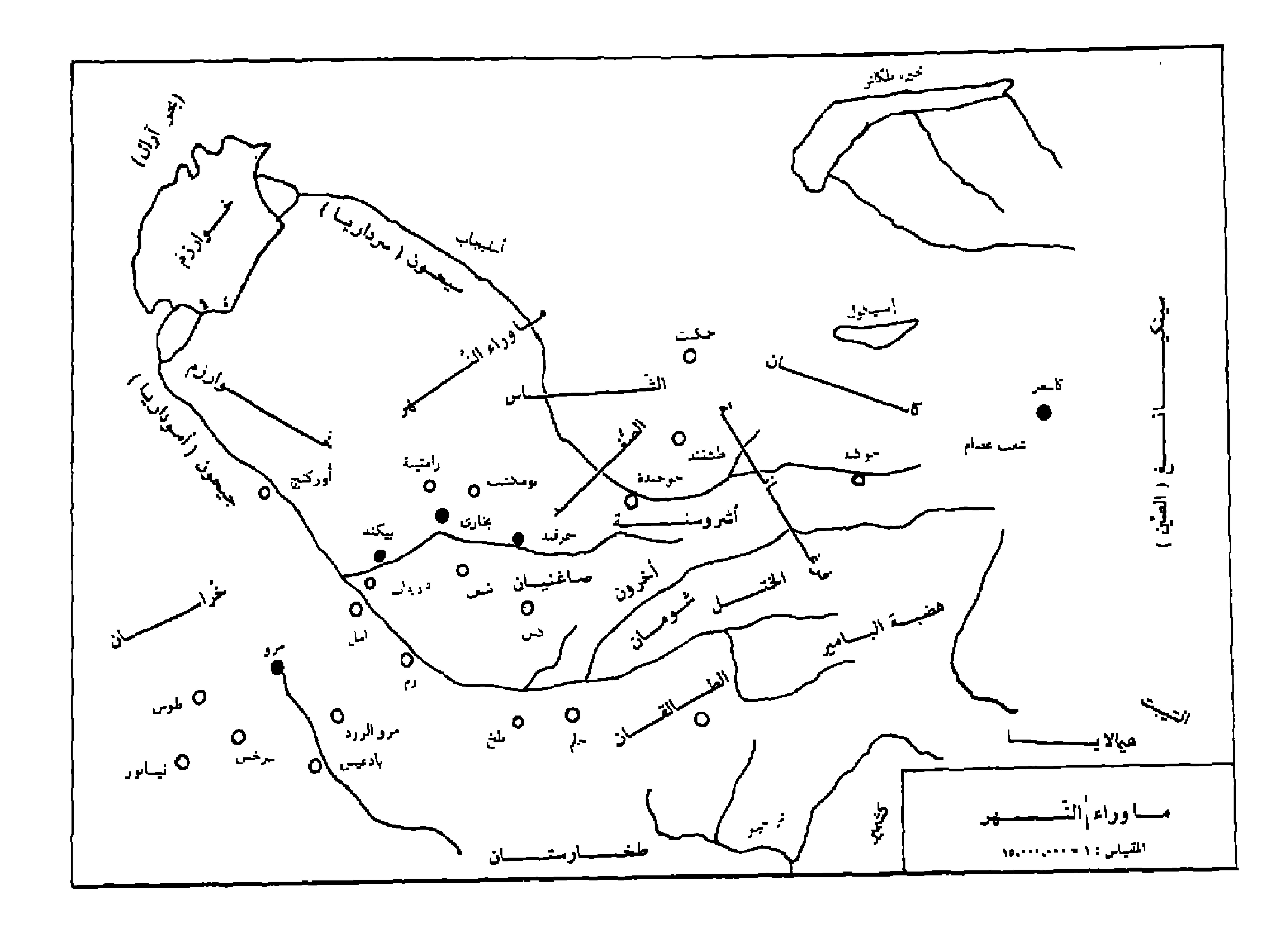
---

(١) ساقة الجيش : مؤخَّره . [اللِّسـان : سـوق] .

(٢) البداية والنِّهاية : ٦١/٩

(٣) مَرْوُ الشـاهِجَـان : مرو العظمى ، أشهر مـدن خراســان وقصبتهـا ، ومرو : الحجـارة البيض التي تُقْتَـدح بهـا النَّـار . وشـاهجـان : تعني نفس أو روح السُّلطان . [معجم البلدان : ١١٢/٥] .

(٤) كاشْغَر : مـدينـة وقرى ورسـاتيـق يسـافر إليهـا من سمرقنـد ، [معجم البلدان : ٤٣٠/٤] ، إنَّها اليوم في إقليم سينكيانغ (Sinkiang) الصينيَّة .


ماوراء النهر
المقياس : ١ : ١٥،٠٠٠،٠٠٠
(بحر آرال)
خوارزم
سيحون (سرداريا)
جيحون (أموداريا)
أسبيجاب
حكت
كاشغر
شعب عدام
اوركنج
رامثية
بخارى
بيكند
سمرقند
أشروسنة
صاغنيان
أخرون
الختل
شومان
هضبة البامير
خراسان
طخارستان
مرو
طوس
سرخس
نيسابور
مرو الرود
باذغيس
ترمذ
بلخ
الطالقان
هيمالايا
التبت
كشمير

مِن مَرْوَ إلى سَمَرقَنْد

« إنّ الله أحلّكم هـذا المحلّ ليُعزّ دينه ، ويذبّ بكم عن الحرمات .. ووعد نبيّه ﷺ النّصر بحديث صادق .. فتنجّزوا موعود ربّكم ، ووطّنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم ، وإيّاي والهويني » .

[قتيبة بن مسلم الباهلي] .

وصل قتيبة بن مسلم الباهلي سنة ٨٦ هـ خُراسان والياً ، فإذا بالْمُفَضَّل بن المهلَّب بن أبي صفرة يعرض الجند ، وهو يريد أن يغزو (أخْرون) ، و (شُومان)[١] ، فخطب قتيبة النَّاس ، وحثَّهم على الجهاد ، وقال :

« إن الله أحلَّكم هذا المحلَّ ليُعزَّ دينه ، ويذبَّ بكم عن الحرمات ، ويزيد بكم المال استفاضة ، والعدو وَقْماً[٢] ، ووعد نبيَّه ﷺ النَّصر بحديث صادق ، وكتاب ناطق ، فقال : ﴿ هُوَ الَّذي أرسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ

(١) أخرون وشومان بلدان بالصغانيان من وراء نهر جَيحون .

(٢) الوقم : الذُّل والقهر . [اللّسان : وقم] .

كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ ، [الصّف : ٩/٦١] ، ووعد المجاهدين في سبيله أحسنَ الثّواب ، وأعظم الذّخر عنده فقال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُم لا يُصيبُهُم ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبيلِ اللهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغيظُ الكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أجْرَ الْمُحْسِنِينَ ، وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغيرَةً وَلاَ كَبيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً إلاَّ كُتِبَ لَهُم لِيَجزِيَهُمُ اللهُ أحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ، [التّوبة : ٩/١٢٠ و ١٢١] ، ثمّ أخبر عمّن قُتِلَ في سبيله أنّه حيٌّ مرزوق ، فقال : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أمْواتاً بَلْ أحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِم يُرْزَقُونَ ﴾ ، [آل عمران : ٣/١٦٩] ، فتنجّزوا موعود ربّكم ، ووطّنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم ، وإيّاي والهُوَينى »(١) .

انطلق قتيبة مستخلفاً بمرو على الأُمور العسكرية إياس بن عبد الله بن عمرو ، وعلى الأُمور الماليّة عثمان بن السّعدي ، فلما كان بالطالَقان تلقاه دهاقين بَلْخ وبعض عظمائها ، وساروا معه ، فلما قطع نهر جَيْحون تلقّاه (تيش) الأعور ملك الصَّغانيان بهدايا ومفتاح من ذهب ، ودعاه إلى بلاده ، فأتاه ، وأتى ملك كفتان بهدايا وأموال ، ودعاه إلى بلاده ، فمضى مع (تيش) إلى الصَّغانيان ،

(١) الطّبري : ٤٢٤/٦ ، الكامل في التّاريخ : ١٠٥/٤ ، الفتوح (ابن الأعثم) : ٢١٧/٧

فسلّم إليه بلاده ، وكان ملك أخْرون وشُومان قد أساء جوار (تيش) وغزاه وضيّق عليه ، فسار قتيبة إلى أخرون وشومان ـ وهما من طُخارستان ـ فجاء (غشتاسبان) فصالحه على فدية أدّاها إليه ، فقبلها قتيبة ورضي ، ثمّ انصرف إلى مَرْوَ ، واستخلف على الجند أخاه صالح بن مسلم ، وتقدّم جندَه فسبقهم إلى مرو ، وبلغ الحجّاج ذلك ، فكتب إليه يلومه ويعجّز رأيَه في تخليفه الجند ، وكتب إليه :

« إذا غزوتَ فكن في مُقدّم النّاس ، وإذا قفلتَ فكن في أُخرياتهم وساقتهم »[1] .

وبعد كمون في مَرْوَ طيلة فصل الشتاء[2] ، بدأ قتيبة عمليات سنة ٨٧ هـ مع أوائل الرّبيع ، وفي هذه السّنة قدم (نيزك) على قتيبة ، وصالح قتيبة أهل (باذَغيس) على ألاّ يدخلها ، وذلك أنّ نيزك طَرْخان كان في يديه أسرى من المسلمين ، فكتب إليه قتيبة حين صالح شُومان فيمن في يديه من أسرى المسلمين أن يطلقهم ، وتوعّده ، فخافه نيزك ، فأطلق الأسرى وبعث بهم إلى قتيبة ، فوجّه

(١) هنا رواية الطّبري : ٤٢٥/٦ ، وقد مرّت رواية البداية والنّهاية ، والمضمون واحد .

(٢) جاء في الطّبري : ٤٢٩/٦ : « أقام [في مَرْوَ] إلى وقت الغزو » .

إليه قتيبة سُلَيماً النَّاصح مولى عبيد الله بن أبي بكرة ، يدعوه إلى الصُّلح ، وإلى أن يؤمِّنه ، وكتب إليه كتاباً يحلف فيه بالله لئن لم يقدم عليه ليغزونَّه ، ثمَّ ليطلبنَّه حيث كان ، لا يقلع عنه حتَّى يظفر به ، أو يموتَ قبل ذلك ، فقدم سُلَيم على نيزك بكتاب قتيبة - وكان يستنصحه - فقال له يا سُلَيم ، ما أظن عند صاحبك خيراً ، كتب إليَّ كتاباً لا يُكتَبُ إلى مثلي ، قال له سُلَيم : يا أبا الهَيَّاج ، إنَّ هذا رجل شديد في سلطانه ، سهل إذا سُوهِل ، صعب إلى عُوسِر ، فلا يمنعك منه غلظة كتابه إليك ، فما أحسن حالك عنده ، وعند جميع مُضَر ! فقدم نيزك مع سُلَيم على قتيبة ، فصالحه أهل باذْغيس سنة ٨٧ هـ على ألاَّ يدخلها .

فتح بِيكَنْد (٨٧ هـ) :

سار قتيبة من مرو إلى (آمُل) ، ثمَّ مضى إلى (زَم) ، ثمَّ اجتاز نهر جَيْحون وسار إلى بِيكَنْد[١] ، وهي أدنى مدائن بخارى إلى نهر جيحون ، يقال لها مدينة التُّجَّار ، على رأس المفازة من بُخَارى ، فلما نزل قتيبة بساحهم ، استنصروا الصُّغْدَ ، واستمدوا من حولهم ، فأتوهم في جمع كثير[٢] .

---

(١) بيكَنْد : بالكسر وفتح الكاف وسكون النُّون ، بلدة بين بُخَارى ونهر جيحون ، [معجم البلدان : ٥٣٣/١] .

(٢) الكامل في التَّاريخ : ١٠٧/٥ ، الفتوح (ابن الأعثم) : ٢٢١/٧

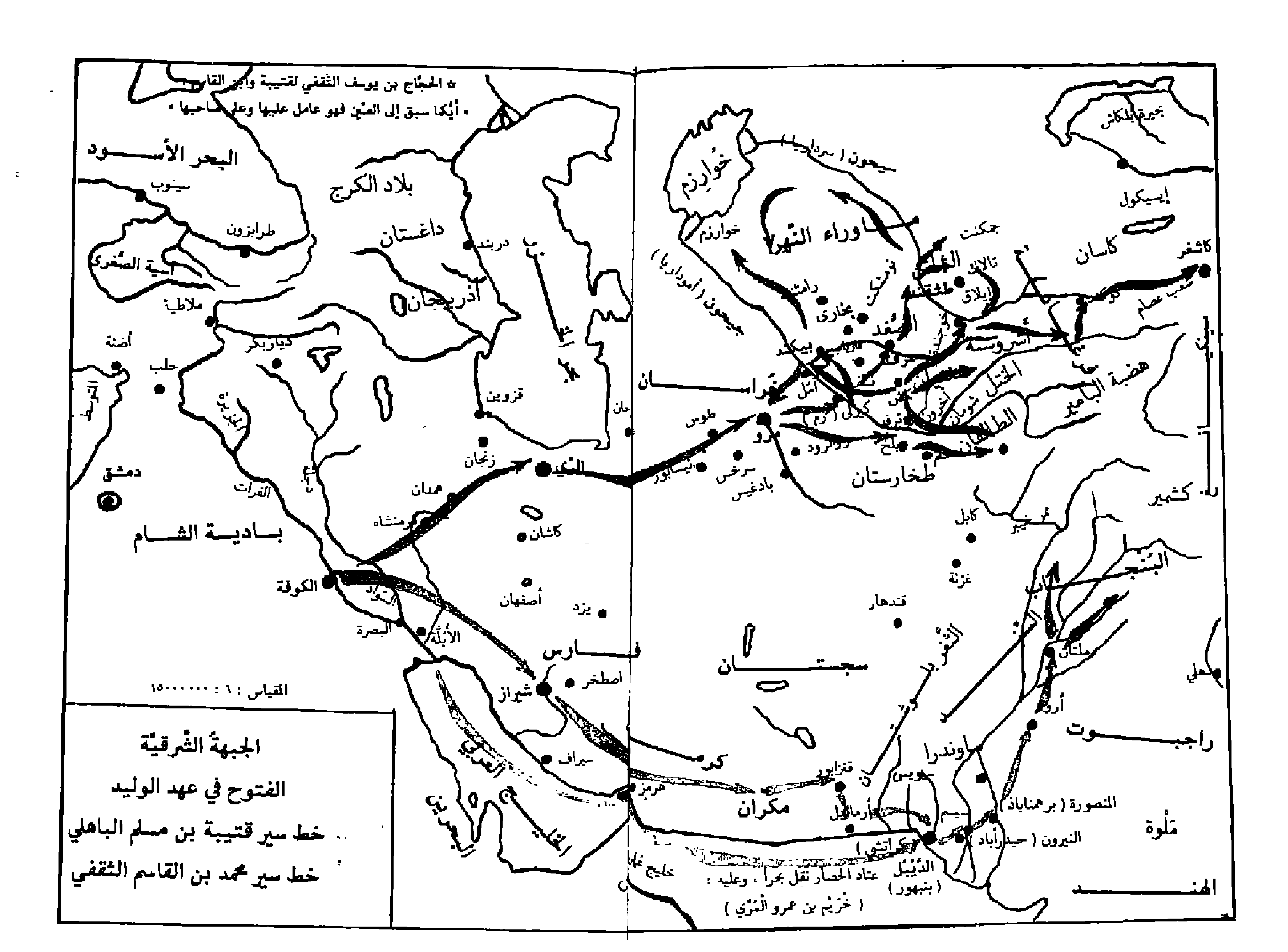
وكان لقتيبة عين من العجم يقال له (تنذر) ، أعطاه أهل المنطقة مالاً ، على أن يرد عنهم قتيبة ، فأتاه تنذر فقال : أخلني ! فنهض النَّاس ، واحتبس قتيبةُ ضرارَ بن حصين الضَّبي ، فقال تنذر : هذا عامل يقدم عليك وقد عُزِل الحجَّاج ، فلوانصرفت إلى مَرْو[1] ! أيُّها الأمير ! إنَّه قد غرَّك الحجَّاج ، وألقاكَ إلى التَّهلكة ، وهذا عامل يقدم عليك من قبل الوليد بن عبد الملك ، فلا تحارب هؤلاء القوم في يومك هذا ، فإنَّك لا تدري كيف يكون الأمر بينَك وبينهم ! فتبسَّم قتيبة من ذلك ، ثمَّ قال : ياعدوَّ الله ! وما الَّذي أتاك بهذا الخبر دوني ؟ أهذا شيء دبَّرته على أن أصرف جيشي هذا عن التُّرك في يومي هذا ؟ ثمَّ قدَّمه قتيبة فضرب عنقه[2] ، ثم قال لضرار : لم يبقَ أحد يعلم هذا الخبر غيري وغيرك ، وإنِّي أعطي الله عهداً إن ظهر هذا الحديث من أحد حتَّى تنقضي حربنا هذه لألحقنَّك به ، فاملك لسانك ، فإن انتشار هذا الحديث يفتٌّ في أعضاد النَّاس[3] .

ولكن المسلمين رأوا قتل تنذر ، فراعهم ما فعل قتيبة بجاسوسه هذا ، فقال قتيبة : أيُّها النَّاس ، مالي أراكم قد راعكم قتل تنذر ؟

(١) البداية والنِّهاية : ٧٢/٩ ، الطَّبري : ٤٣٠/٦

(٢) الفتوح (لابن الأعثم) : ٢١٨/٧ ، الكامل في التَّاريخ : ١٠٧/٤ ، البداية والنِّهاية : ٧٢/٩

(٣) الطَّبري : ٤٣٠/٦



الحجّاج بن يوسف الثقفي لقتيبة وابن القاسم
أيُّكما سبق إلى الصّين فهو عامل عليها وعلى صاحبها
البحر الأسود
بلاد الكرج
داغستان
أذربيجان
خوارزم
وراء النهر
كاسان
كاشغر
إيسيكول
خراسان
طخارستان
كشمير
بادية الشام
الكوفة
البصرة
فارس
شيراز
سجستان
مكران
راجبوت
ملوة
الهند
الجبهة الشرقية
الفتوح في عهد الوليد
خط سير قتيبة بن مسلم الباهلي
خط سير محمد بن القاسم الثقفي
المقياس : ١ : ١٥٠٠٠٠٠٠

هذا عبد أحانه الله[1] ، وقد كنت أظنـه نـاصحـاً للمسلمين ، بل كان غاشّاً لهم ، فذروا عنكم ما كان مني إلى تنذر ، وعليكم بجهـاد عـدوّكم ، قالوا : إنّـا كنّـا نظنّـه نـاصحـاً للمسلمين ، قـال : بل كان غـاشّـاً لهم فأحانه الله بذنبه ، فقد مضى لسبيلـه ، فـاغـدوا على قتـال عـدوّكم ، والقَوْم بغير مـا كنتم تلقـونهم بـه ، فغـدا النّـاس متـأهّبين ، وأخـذوا مصافّهم ، ثمّ تزاحفوا والتقوا .. واعتصم من دخل المدينة بالمـدينـة ، فركّز سلاح (الفَعَلَـة) على سورهـا لهـدمـه ، فسـألوا قتيبـة الصُّلـح فصالحهم ، واستعمل عليهم رجلاً من بني قتيبة .

وارتحل قتيبة عنهم يريد الرُّجوع إلى مَرْو ، فلما سار مرحلة أو مرحلَتَيْن[2] ، نقضوا عهدهم ، فقتلوا العامل وأصحابـه ، ومثّلوا بهم ، وبلغ قتيبة فرجع إليهم وقد تحصّنوا بمدينتهم ، فقـاتلهم شهراً ، وركّز سلاح (الفَعَلَة) على تحصينات المدينـة ، واستطـاعوا بعـد استشهـاد أربعين منهم خرقهـا ، فطلب سكان بيكنـد الصُّلـح ، فـأبى قتيبـة وقـاتلهم لأنّ النّصر تحقّق ، فظفر بهم عنوة ، فقتل من كان فيهـا من المقاتلة ، وكان فيمن أخـذوا من المـدينـة رجل أعور هو الّـذي حرّض التُّرك على المسلمين ، فقال لقتيبة : أنا أفـدي نفسي ، فقـال لـه سُلَيم

(١) حانَ الرَّجل : هلك ، [اللّسـان : حين] .

(٢) المرحلة : المنزلة يرتحل منها ، وما بين المنزلتَيْن مرحلة ، والمرحلـة مسيرة يوم ، وتقدَّر بنحو ٩٠ كم .

النّاصح : ماتبذل ؟ قال : خمسة آلاف حريرة صينيَّة قيمتها ألف ألف ، فقال قتيبة : ماترون ؟ قالوا : نرى أنّ فداءه زيادة في غنائم المسلمين ، وما عسى أن يبلغ من كَيْد هذا ؟ قال قتيبة : « لا والله لا أُروِّع بك مسلماً مرَّة أُخرى »[1] ، وأمر به فضربت عنقه .

وعمَّر أهل بيكند مدينتهم ثانية بإذن قتيبة ، ونزلوا بها على أنَّهم يؤدُّون إليه في كلّ سنة شيئاً معلوماً ، فصالحهم على ذلك ، وكتب عليهم بذلك كتاباً[2] .

ثمَّ قفل قتيبة ومن معه يريد مرو ، فإذا بطرخان ملك الصُّغد ، وكوربُغانون[3] ملك التُّرك قد أقبلا في مئتي ألف يريدون قتاله ، فرجع قتيبة إليهما ، وتمكَّن من الانتصار عليهما .

رجع قتيبة إلى مرو ، وكتب إلى الحجَّاج يستأذنه في دفع السّلاح وآلة الحرب الكثيرة الَّتي عثر عليها في بيكند إلى الْجُنْد ، فأذن له ، وقوي المسلمون بذلك ، وتنافسوا في حُسْنِ الهيئة والعُدَّة .

---

(١) الطَّبري : ٤٣١/٦ ، الكامل في التَّاريخ : ١٠٧/٤ ، البداية والنِّهاية : ٧٢/٩

(٢) الفتوح (لابن الأعثم) : ٢٢٢/٧

(٣) كوربُغانون : ابن أخت ملك الصين . [البداية والنِّهاية : ٧٥/٩] ، وهو في الكامل في التَّاريخ : ١٠٩/٤ : كورنعابون .

فتح نومُشْكَت وراميثَينة (٨٨ هـ) :

أمضى قتيبة الشِّتاء في مَرْو ، ليبدأ عملياته الجديدة منذ أيَّام الرَّبيع ، لقد كان يقول لجنده : إنِّي أُغزيكم قبل أن تحتاجوا إلى حمل الزَّاد ، وأنتقلكم قبل أن تحتاجوا إلى الإدفاء[1] .

سار قتيبة في عُدَّة حسنة وعبر نهر جيحون من زَم إلى بُخَارى ، فأتى نومُشْكَت - وهي من بخارى - فتلقَّاه أهلها ، فصالحهم ، ثمَّ سار إلى رامثينة فصالحه أهلها ، فانصرف عنهم .

وفي هذه السَّنة (٨٨ هـ) غزا ملكُ التُّرك كوربُغانون ، ابن أُخت ملك الصِّين ، في مئتي ألف مقاتل ، من أهل الصُّغد وفرغانة وغيرهما قتيبةَ ، وكان مع قتيبة (نيزك) ملك التُّرك مأسوراً ، فكسرهم قتيبةُ وغنم من أموالهم شيئاً كثيراً[2] .

ثم عاد قتيبة بجنده إلى مَرْو ، لقضاء فصل الشِّتاء .

إلى بُخارى (٨٩ هـ) :

وفي سنة ٨٩ هـ سار قتيبة وجنده إلى بخارى ، لقد أتاه كتاب من الحجَّاج نَصُّه : « رِدْ (وَرْدان خُذَاه)[3] » ، فأتى زَم ، فقطع

---

(١) الطَّبري : ٤٣٢/٦

(٢) الطَّبري : ٤٣٦/٦ ، الكامل في التَّاريخ : ١٠٩/٤

(٣) وَرْدان خُذَاه : ملك بُخارى ، [البداية والنِّهاية : ٧٦/٩] .

النَّهر ، فلقيه الصُّغد ، وأهل كِشّ ، وحاولوا معارضته في طريقه ، ولكن قتيبة ظفر بهم ، ومضى إلى بخارى ، ولكنّه لم يحقّق نصراً حاسماً على (وَرْدان خُذَاه) ، فرجع إلى قاعدته مَرْو ، وكتب إلى الحجّاج بذلك ، فكتب إليه الحجّاج أن صَوِّرْها لي ، فبعث إليه بمخطَّط يوضّح موقعها والتَّضاريس المحيطة والمؤدّية إليها ، فكتب إليه الحجّاج أن ارجع إلى مراغَتِك[1] ، فتب إلى الله ممّا كان منك ، ثمّ رسم له المكان المناسب لاقتحامها ، وقال : وإيّاك والتَّحويط[2] ودعني وثنيات الطُّرق .

فتح بُخَارى (٩٠ هـ) :

وفي سنة ٩٠ هـ ، جدَّد قتيبة الصُّلح بينه وبين طَرْخون ملك الصُّغد ، وسار إلى بُخارى ، فأرسل ملكها وَرْدان خُذَاه يستنصر من حوله ، ولكن قتيبة استطاع فتح بُخارى سنة ٩٠ هـ .

وفي هذه السَّنة (٩٠ هـ) غدر نِيزَك طرخان ، ونقض الصُّلح الّذي كان بينه وبين المسلمين ، وامتنع بقلعته .

---

(١) المراغة في الأصل : متمرَّغ الدّابة ، أراد بها الحجّاج بخارى . أي أن يفتحها ويتّخذها معقلاً يتقلّب فيه ، كما تتقلّب الدّابة في مراغتها .

(٢) حاوطت فلاناً محاوطة إذا داورته في أمر تريده منه ، وهو يأباه . كأنّك تحوطه ويحوطك . [اللّسان : حيط] .

جاء في اليعقوبي : ٢٨٦/٢ : ولما فتح قتيبة بُخارى والطالقان ، استأذنه نيزك طرخان في الرُّجوع إلى بلاده ، وكان نيزك قد أسلم وسمّي بعبد الله ، فأذن له ، فرجع إلى طُخارستان ، فعصى وكاتب من حوله ، وجمع الجموع ، فزحف إليه قتيبة ، ووجّه إليه سُلَيماً النَّاصح ، وكان صديقاً له ، فلم يزل يستدرجه حتّى خرج إلى قتيبة .

لقد سار نيزك طرخان إلى قتيبة لعلمه أنّه لا طاقة له بقتيبة[1] ، واستشار قتيبة الأُمراء في قتل نيزك ، فاختلفوا عليه ، فقائل يقول اقتله ، وقائل يقول لا تقتله ، فقال له بعض الأُمراء : إنّك أعطيت الله عهداً أنّك إن ظفرت به لتقتلنّه ، وقد أمكنكَ الله منه ، فقال قتيبة : واللهِ إن لم يبقَ من عمري إلاّ ما يسع ثلاث كلمات لأقتلنّه ، ثمّ قال : اقتلوه ، اقتلوه ، اقتلوه ، فقُتِل[2] ، جزاء غدره ونقضه الصُّلح .

فتح شُومان (٩١ هـ) :

وفي سنة ٩١ هـ ، فتح قتيبة شُومان ، وغزا كَش ونَسَف .

---

(١) الطّبري : ٤٤٧/٦

(٢) الطّبري : ٤٥٧/٦ . البداية والنّهاية : ٨١/٩ ، الفتوح (لابن الآعثم) : ٢٢٤/٧

كان ملك شُومـان[1] يقول : أنـا أمنـع الملـوك حصنـاً ، وأشـدُّ النَّاس رمياً ، فما أخاف من قتيبة ، فمضى قتيبـة من بَلْخ فعبر النَّهر ، ثمَّ أتى شُومان وقد تحصَّن ملكها ، فوضع قتيبة المجانيق تجاه سورهـا ، ووضع منجنيقاً كان يسميها الفَحْجاء[2] ، فرمى العاملون عليها بـأوَّل حجر فـأصـابوا السُّور ، ورموا بـآخر فوقـع في المـدينـة ، ثمَّ تتـابعت الحجارة في المدينة ، فوقع حجر منها في مجلس الملك ، فأصاب رجلاً فقتله .

لقد هشَّمت المجانيق أسوار القلعة ، الَّتي فتحت عنوة .

فتح كَش ونَسَف (٩٢ هـ) :

كتب الحجَّـاج إلى قتيبـة : عليـكَ بكَش ، وانسِف نَسَف نسفـاً[3] ، فسـار قتيبة في ربيع ٩٢ هـ حسب روايـة [البـدايـة والنِّهايـة : ٨٣/٦] ، وفتح كَش ونَسَف ، وامتنعت عليـه فِرْيـاب ، فحرَّقها فسمِّيت المحترقة .

لقـد كانت خطـوات قتيبة وئيـدة بطيئـة ، ولكنهـا خطـوات خُطِّط لها بدقة ، ضمن (استراتيجيَّة) فتح الصِّين .

---

(١) ملك شُومان : فيلـنشب باذق ، وقيل : قيـبشتان ، [الطَّبري : ٤٦١/٦] .

(٢) الفحـج : تبـاعـد مـا بين الرِّجلَيْن ، والنَّعت : أفحـج ، والأُنثى : فحجـاء ، [اللِّسان : فحج] .

(٣) الطَّبري : ٤٦٢/٦

فَتْحُ سَمَرْقَنْد

(٩٣ هـ)

« ولو عاشَ الحجّاجُ لما أقلعَ عن بلادِ الصّين ، ولم يبقَ إلاّ أنْ يَلْتَقي معَ مَلِكِهَا » .

[البداية والنّهاية : ٨٧/٩] .

قال المجشّر بن مُزاحم السُّلَمي لقتيبة : إنَّ لي حاجة ، فأخْلِني ، فأخلاه ، فقال : إن أردتَ الصُّغد يوماً من الدَّهر فالآن ، فإنَّهم آمنون من أن تأتيهم من عامك هذا ، وإنَّما بينكَ وبينهم عشرة أيَّام ، قال : أشار بهذا عليك أحد ؟ قال : لا ، قال : فأعلمته أحداً ؟ قال : لا ، قال : والله لئن تكلَّم به أحد لأضربنَّ عنقك ، فأقام يومه ذلك ، فلما أصبح من الغد ، دعا أخاه عبد الرَّحمن بن مسلم الباهلي فقال : سِرْ في الفرسان والْمُرَامِيَة ، وقدّم الأثقالَ إلى مَرْو[1] ، فَوُجِّهت الأثقال إلى مرو يومه كله ، فلما أمسى كتب إليه :

---

(١) هذا يدلُّ على أنَّ مكن قتيبة وجنده في فصل الشّتاء في منطقة مَرْو ، لا في المدينة ذاتها .

إذا أصبحت فوجِّه الأثقالَ إلى مَرْو ، وسِرْ في الفرسـان والمراميـة نحو الصُّغد ، واكتم الأخبار ، فإنِّي بالأثر[١] .

وأرسل الحجَّاج إلى قتيبة كتاباً يقول فيه :

« أمَّـا بعـد ، فـإنِّي لستُ بـآيسٍ إذ فتـح الله علينـا وعليـك خُوارزم ، وأغنمنا أموالها وخزائنها وغنـائمهـا ، أن يفتح الله عليـك وعلينا ما بعدهـا ، وقـد بلغني أنَّـك تريـد المسير إلى سمرقنـد ، وأنـا أنشـدك أن غزوتَ بـالمسلمين ، وأنـا أسـأل الله أن يعـزَّ نصرك ، وأن يحسن عاقبتك ، وأن يمدَّك بالملائكة المُرْدِفِين[٢] ، وأن يرعب قلوب أهـل سمرقنـد ، وأن يخـالف بين كلمتهم ، وأن يلقي بـأسهم بينهم ، وأن يـورثنـا أرضهم وديـارهم وأمـوالهم ، وأن يجعـل دائرة السَّـوء عليهم ، إنَّـه على كلِّ شيء قـدير ، والسَّـلام عليـك ورحمـة الله وبركاته »[٣] .

فلما ورد كتاب الحجَّاج على قتيبة ، نادى في النَّـاس فجمعهم ، وأقرأهم الكتاب ، ثمَّ نـدبهم إلى المسير إلى سمرقنـد ، وخطبهم فقـال : « إنَّ الله قـد فتح لكم هـذه البلـدة في وقتٍ الغَزْوُ فيـه ممكن ، وهـذه

(١) الطَّبري : ٤٧٢/٦ ، الكامل في التَّاريخ : ١٢٦/٤ ، البـدايـة والنهـايـة : ٨٥/٩ ، ابن خلدون : ٦٢/٣

(٢) مُرْدِفين : أي مُتتابعين يَرْدُفُ بعضهم بعضاً . [اللّسـان : ردف] .

(٣) الفتوح (لابن الأعثم) : ٢٣٩/٧

الصُّغد شاغرةً برِجْلها ، قد نقضوا العهد الَّذي كان بيننا ، منعونا ما كنّا صالحنا عليه طرخون ، وصنعوا به ما بلغكم ، وقال الله : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا ينكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ ، [الفتح : ٤٨/١٠] ، فسيروا على بركة الله ، فإنّي أرجو أن يكون خوارزم والصُّغد كالنَّضير وقريظة[1] ، وقال الله : ﴿ وَأُخْرَى لَمْ تَقدرُوا عَلَيْهَا قَدْ أحَاطَ اللهُ بِهَا ﴾ ، [الفتح : ٤٨/٢١] »[2] .

عبر عبد الرَّحمن ومن معه النَّهر ، وسار إلى سمرقند ، وعبر قتيبة بالأثر وعبر ـ ومن معه ـ نهر جيحون ، وحوصرت سمرقند .

سَمَرْقَنْدُ :

إنَّها قصبة الصُّغد ، مبنيَّة على ضَفَّة وادٍ ، وهي مرتفعة على الوادي ، وحول سورها رسم خندق عظيم ، ولها نهر يدخل إليها على قناطر فيشق سوق المدينة بموضع يعرف برأس الطَّاق[3] .

ويشتمل على سمرقند سورٌ له أربعة أبواب : باب من ناحية المشرق يقال له باب الصّين ، مرتفع عن الأرض ينزل منه في عدد درج مطلٌّ على وادي الصُّغد ، وبابها مما يلي المغرب يسمَّى النوبهار ،

(١) كبني النَّضير وبني قريظة . الحيَّان اليهوديَّان اللَّذان انتصر المسلمون عليهما بعد غزوتي أُحُد والخندق .

(٢) الطَّبري : ٦/٤٧٢ ـ ٤٧٣

(٣) صبح الأعشى (القلقشندي) : ٤/٤٢٥

وهـو على شرف من الأرض أيضـاً ، ومِمَّـا يلي الشَّمال بـاب بُخـارى ، ومِمَّا يلي الجنوب باب كَش[1] .

وسمرقند مدينـة مرتفعـة يشرف النَّـاظر بهـا على شجر أخضر ، وقصور تزهر ، وأنهار تَطَّرد[2] .

« وأمَّا صغد سمرقند فإنَّ قتيبـة بن مسلم لمـا أشرف من الجبل ، قال لأصحابه شبِّهُوه ، فلم يأتوا بشيء ، فقال قتيبـة : كأنَّـه السَّماء في الخضرة ، وكأن قصوره النجوم ، وكأن أنهاره المجرَّة ، فاستحسنوا هـذا التَّشبيه ، وتعجبوا من إصابته »[3] .

كَمِينُ قُتيبة :

استنجد غَوْزَك ملك الصُّغد بعد خوفه من طول الحصـار بملـك الشَّاش ، وبملك فَرْغانـة ، وكتب إليهما : « إنَّ العرب إن ظفروا بنـا عادوا عليكم بمثل ما أتَوْنـا بـه ، فـانظروا لأنفسكم »[4] ، فـأجمع ملـك الشَّاش ، وملك فَرْغانة على نجدة الصُّغـد ، وأرسلا أن شـاغِلُوا قتيبـة ومن معه كي نفاجئهم على حين غِرَّة .

(١) صبح الأعشى : ٤/٤٣٦ ، الرَّوض المعطـار في خبر الأقطـار (الحميري) : ٣٢٢ ، معجم البلدان : ٣/٢٤٦

(٢) صبح الأعشى : ٤/٤٣٥

(٣) بلوغ الأرب : ١/١٨٧

(٤) الطَّبري : ٦/٤٧٢ ، ابن خلدون : ٣/٦٣

وانتخب أهلُ الشَّاش وفَرْغانة كلَّ شديد السَّطوة من أبناء الملوك والأُمراء ، والأشدَّاء الأبطال ، وأمروهم أن يسيروا إلى قتيبة ، ليفاجئوه ، ولكن استطلاع قتيبة دائم ويقظ ، فجاءته الأخبار بما عزم العدوُّ عليه .

انتخب قتيبةُ ستمئة من أهل النَّجدة ، وجعل عليهم أخاه صالح بن مسلم أميراً ، « ووضع قتيبةُ عيوناً على العدوّ حتَّى إذا قَرُبوا منه قَدْرَ ما يصلون إلى عسكره من اللَّيل أدخل الَّذين انتخبهم ، فكلَّمهم وحَضَّهم ، واستعمل عليهم صالح بن مسلم ، فخرجوا من العسكر عند المغرب ، فساروا ، فنزلوا على فرسخَيْن من العسكر على طريق القوم الَّذين وصفوا لهم ، ففرَّق صالح خيله ، وأكمن كميناً عن يمينه ، وكميناً عن يساره[1] ، حتَّى إذا مضى نصفُ اللَّيل أو ثلثاه ، جاء العدوُّ باجتماع وإسراع وصمت ، وصالحٌ واقفٌ في خيله ، فلما رأوه شدُّوا عليه ، حتَّى إذا اختلفت الرِّماح ، شدَّ الكمينان عن يمين وعن شِمال ، فلم نسمع إلاَّ الاعتزاء[2] ، فلم نَرَ قوماً كانوا أشدَّ منهم »[3] .

لم يفلت من هذه النَّجدات إلاَّ النَّفر اليسير ، وغنم المسلمون

(١) ساعده على ذلك الطبيعة الجبليَّة في المنطقة ، وظلمة اللَّيل أيضاً .

(٢) العَزاء والعِزْوة : اسم لدعوى المستغيث ، [اللّسان : عزا] .

(٣) الطَّبري : ٦/٤٧٧ . الكامل في التَّاريخ : ٤/١٢٦

أسلحتهم ، وقال بعض الأسرى : تعلمون أنّكم لم تقتلوا في مقامكم هـذا إلاّ ابن ملك ، أو بطل من الأبطال المعدودين بمئة فارس ، أو بألف فارس[1] .

وقال فـارس مسلم من الجنـد الّـذين كانوا في كمين صـالح : إنّـا لنختلف عليهم بـالطّعن والضّرب إذ تبيّنت تحت اللّيل قتيبـةَ ، وقـد ضربتُ ضربةً أعجبتني وأنا أنظر إلى قتيبة ، فقلت : كيف ترى بأبي أنت وأُمي ! قال : اسكُت دَقّ اللهُ فاك ! قـال : فقتلنـاهم فلم يُفلِت منهم إلاّ الشّريـد ، وأقمنـــا نحـوي الأســلابَ ونحتز الرؤوس حتّى أصبحنا ، ثمّ أقبلنا إلى العسكر ، فلم أرَ جماعةً قطّ جاؤوا بمثل ما جئنا به ، ما مِنّا رجلٌ إلاّ معلّق رأساً معروفاً باسمه ، وأسير في وَثاقه[2] .

لقـد منـع قتيبـة بهـذا الكمين « وصـول النّجـدات إلى ميـدان المعركـة[3] ، مـع إشغـال النّجـدات قبـل وصـولهـا بكمين ليلي ، ريثما يتسنّى له سحب قطعاته من حوالي أسوار سمرقند ، والقيـام بحركـة

---

(١) البـدايـة والنّهـايـة : ٨٥/٩ ، الكامـل في التّـاريـخ : ١٢٦/٤ ، الفتـوح (ابن الأعثم) : ٢٤٠/٧ .

(٢) الطّبري : ٤٧٧/٦

(٣) بفضل الاستطلاع الجيّـد ، وفي الوقت النـاسب ، لقـد رصـد الاستطلاع تحرُّك هذه القوّات بدقّة وصمت .

خـاطفـة ليليَّـة للقضـاء على أرتـال النَّجـدات في معركـة ليليَّـة ، في الوقت الَّذي يكون الكمين قد أوقف تقدُّمها »[1] .

الْمَجَانِيقُ حَولَ سَمَرْقَند :

نصب قتيبـة المجـانيق حول سمرقنـد ، ورمت بتركيز دقيـق على سـور المدينة ، فَثَلَمَت فيهـا ثُلْمـة ، فرمَّمهـا المـدافعون عنهـا بسرعـة كبيرة ، وجـاء رجـل قـام على الثُّلْمـة ، فشتم قتيبـة (بعربيَّـة فصيحة)[2] ، وكان مع قتيبـة قومٌ رُمـاة ، يُسَمَّون (رمـاة الْحَـدَق) لدقَّة تصويبهم ، فقال لهم قتيبة : اختاروا منكم رجلَيْن ، فاختاروا ، فقال : أيُّكما يرمي هذا الرَّجل ، فإن أصابه فلـه عشرة آلاف ، وإن أخطأه قطعت يده ، فتلكَّأ أحدهما وتقدَّم الآخر ، فرمـاه فلم يخطئ عينَه ، فأمر له بعشرةَ آلاف[3] .

قال خـالـد مولى مسلم بن عمرو : كنت في رمـاة قتيبـة ، فلمَّـا افتتحنا المدينة صعدتُ السُّور ، فأتيت مقام ذلـك الرَّجل الَّـذي كان فيه ، فوجدته ميتاً على الحائـط ، مـا أخطـأتِ النُّشـابـةُ عينـه حتَّى خرجت من قفاه .

---

(١) قتيبة بن مسلم ، ص : ١١٠

(٢) الطَّبري : ٤٧٨/٦

(٣) الكامل في التَّاريخ : ١٢٧/٤ ، البداية والنِّهاية : ٨٥/٩

قال غوزك (ملك الصُّغد) لقتيبة : إنَّما تقاتلني بإخواني وأهل بيتي ، فاخرج إليَّ في العرب ، فغضب قتيبة عند ذلك ، وميَّز العربَ من العجم ، وأمر العجم باعتزالهم ، وقدَّم الشُّجعان من العرب ، وأعطاهم جيِّد السِّلاح ، وزحف بالأبطال على المدينة ، ورماها بالمجانيق ، فثَلَم فيها ثُلْمة ، وقال قتيبة : ألحوا عليها حتَّى تعبروا الثُّلْمة ، فقاتلوهم حتَّى صاروا على ثلمة المدينة[1] ، عندها قال غوزكُ لقتيبة : ارجع عنَّا يومك هذا ونحن نصالحك غداً ، فقال قتيبة : لا نصالحهم إلاَّ ورجالنا على الثُّلمة ، ومجانيقنا تخطر على رؤوسهم ومدينتهم[2] .

ويناجي قتيبةُ نفسه : حتَّى متى يا سمرقند يعشش فيك الشَّيطان ، أما واللهِ لئن أصبحتُ لأُحاولن من أهلك أقصى غاية .

وفي اليوم التَّالي ، والمسلمون على الثُّلْمة ، عاود غوزك يطالب

---

(١) الطَّبري : ٦/٤٧٤

(٢) جاء في الفتوح (لابن الاعثم) : ٧/٢٤٠ : قال رجل من سمرقند : يا معشر العرب : على ماذا تقاتلونا وتدخلون على أنفسكم المشقَّة والعناء في أمر لا تصلون إليه ؟ إنَّا قد وجدنا في بعض كتبنا أنَّ مدينتنا هذه لا يفتحها إلاَّ رجل اسمه آكاف الجمل . فانصرفوا عنَّا ولا تتعبوا خيلكم وتقتلوا أنفسكم ، فقال قتيبة : ما الَّذي يقول هؤلاء القوم ؟ فقال رجل ممن يفهم كلامهم : إنَّهم يقولون كذا وكذا . فقال قتيبة : الله أكبر ، فأنا والله أكاف الجمل ، أنا قتيبة . والقتب قتب الجمل . ثمَّ جدَّ في حربهم .

بالصُّلح ، فصالحه قتيبة على : الجزية ، وتحطيم الأصنام وما في بيوت النِّيران ، وإخلاء المدينة من المقاتلة ، وبناء مسجد في المدينة ووضع منبر فيه[1] .

استلم قتيبة ما صالحهم عليه ، وصلَّى في المسجد الَّذي حدَّد مكانه وخطب فيه ، وأتى بالأصنام ، وأُلقيت بعضها فوق بعض . حتَّى صارت كالقصر العظيم ، ثمَّ أمر بتحريقها ، فتصارخ الأعاجم وتباكوا ، وقالوا : إنَّ فيها أصناماً قديمة ، من أحرقها هلك ، فقال قتيبة : أنا أحرقها بيدي ، وجاء غوزك فنهى عن ذلك ، وقال لقتيبة : أيُّها الأمير ، إنِّي لك ناصح ، وإنَّ شكرك عليَّ واجب ، لا تَعرِض لهذه الأصنام ، فقام قتيبة ، ودعا بالنَّار ، وأخذ شعلة بيده ، وقال : أنا أحرقها بيدي ، فكيدوني جميعاً ثمَّ لا تنظرون ، وسار إليها وهو يكبِّر الله عزَّ وجلَّ ، وألقى فيها النَّار ، فاحترقت ، فوجدوا من بقايا ما كان فيها من مسامير الذَّهب والفضَّة خمسين ألف مثقال[2] .

وصنع غوزك طعاماً ، ودعا قتيبةَ ، فأتاه في عدد من أَصحابه . فلما تغدّى ، استوهب منه المدينة ، فقال قتيبة : إنِّي لا أُريد منكم أكثر ممَّا صالحتكم عليه ، ولكن لا بُدَّ من جند يقيمون

(١) البداية والنِّهاية : ٨٥/٩ ، الكامل في التَّاريخ : ١٢٧/٤ ، الطَّبري : ٤٧٥/٦

(٢) الطَّبري : ٤٧/٦ ، البداية والنِّهاية : ٨٦/٩ ، الكامل في التَّاريخ : ١٢٧/٤

عندكم من جهتنا ، وأن ينتقل عنها غوزك ، فانتقل عنها ملكها غوزك ، فتلا قتيبةُ : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَى ، وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى ﴾ ، [النّجم : ٥٠/٥٣ و ٥١] ، ثمَّ ارتحل قتيبة راجعاً إلى مرو ، مستخلفاً على سمرقند أخاه عبد الله بن مسلم ، وخلّف عنده عدداً من الجند كبيراً ، وآلة من آلة الحرب كثيرة ، مع تعليمات حازمة تتعلّق بالدّاخلين إلى سمرقند ، والخارجين منها .

وأورد ابن الأعثم الكوفي نصَّ العهد الّذي كُتِبَ لغوزك في : [٢٤٤/٧] ، كما يلي :

« بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، هذا ما صالح قتيبةُ بن مسلم بن عمرو الباهلي غوزكَ بن أخشيد أفشين الصُّغد ، إنَّه صالحه وشرط له بذلك عهد الله وميثاقه وذمَّته ، وذمَّة رسوله محمد صلَّى الله عليه وسلَّم وآله ، وذمَّة أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان ، وذمَّة الأمير الحجَّاج بن يوسف بن الحكم ، وذمَّة المؤمنين ، وذمَّة قتيبة بن مسلم . فصالحه عن سمرقند ورساتيقها كَش ونَسَف أرضها ومزارعها ، وجميع حدودها على ألفي ألف درهم عاجلة ، ومائتي ألف درهم في كلِّ عام ، وثلاثة آلاف رأس من الرَّقيق ليس فيهم صبي ، ولا شيخ ، على أن يسمعوا ويطيعوا لعبد الله الوليد بن عبد الملك بن مروان ، وللأمير الحجَّاج بن يوسف ، وللأمير

قتيبة بن مسلم ، وعلى أن يؤدّي غوزك بن أخشيد أفشين الصُّغد ما صالحه عليه قتيبة بن مسلم من مال ورقيق ، فما أُعطي من ذلك في جزية أرضه من السَّبي يحسب له كلٌّ رأس بمائتي درهم ، وما كان من الثِّياب الكبار كلٌّ ثوب بمائة درهم ، والصِّغار بستِّين درهماً ، وما كان من حرير فكلٌّ شقة بثمانية وعشرين درهماً ، والذَّهب الأحمر كلٌّ مثقال بعشرين درهماً ، والفضَّة البيضاء مثقال بمثقال ، وعلى قتيبة بن مسلم العهد والميثاق أنَّه لا يعمل على غوزك بن أخشيد أفشين الصُّغد بشيء ولا يغدر به ، ولا يأخذ منه أكثر مما صالحه عليه ، فإن خرج على غوزك بن أخشيد عدوٌّ من الأعداء ، فعلى قتيبة بن مسلم أن ينصره ويعاونه على عدوّه ؛ ويقول قتيبة بن مسلم بأنّي قد ملكتك يا غوزك بن أخشيد سمرقند وأرضها وحدودها وكَش ونَسَف وبلادها وحصونها ، وفوَّضت إليك أمرها [1] ، وأخذت خاتمك عليها ، لا يعترض عليك معترض ، وأن المُلْكَ من بعدها لولدك أبداً ما دامت لي ولاية بخراسان ، شهد على ذلك الحضين بن المنذر البكري ، وضرار بن حصين التَّميمي ، وعلْباء بن حبيب العبقسي ، ومعاوية بن عامر الكندي ، ووكيع بن أبي سود الحنظلي ، وإياس بن نبهان ، والأشجع بن

---

(١) الجزية الّتي تمّ الاتّفاق عليها ، مبلغ يدفع سنوياً قبالة حمايتهم ونصرتهم ، وإبقاء الأرض معهم ، على الرّغم من أنّها فُتحت عنوة .

عبد الرَّحمن ، والمحرر بن حمران ، والمجشَّر بن مزاحم ، وعبد الله بن الأزور ، والفضيل بن عبد الله ، وعثمان بن رجاء ، والحسن بن معاوية ، والفضيل بن بسام ، وكتب ثابت بن أبي ثابت كاتب قتيبة بن مسلم في سنة أربع وتسعين » ، وختم قتيبة بن مسلم الشُّهود بخواتيمهم على هذا العهد ، ودفع العهد إلى غوزك بن أخشيد .

غزو الشَّاش وفَرْغانَة (٩٤ هـ) :

وفي سنة ٩٤ هـ غزا قتيبةَ الشَّاش وفرغانة حتَّى بلغ خُجَنْدَة وكاشان ، ثمَّ عاد إلى مَرْو[١] .

وفي هذه السَّنة كتب الحجَّاج إلى محمَّد بن القاسم الثَّقفي أن وجِّه مَنْ قِبَلكَ من أهل العراق إلى قتيبة[٢] ، إنَّ القائد الحقيقي للجبهة الشَّرقيَّة بفرعيها : الشَّمالي في ما وراء النَّهر بقيادة قتيبة ، والجنوبي في حوض السِّند بقيادة محمد بن القاسم ، هو الحجَّاج بن يوسف الثَّقفي ، وإن تعاوناً تامَّاً ، وانسجاماً كاملاً كانا قائمَيْن بين الفرعَيْن .

---

(١) الكامل في التَّاريخ : ٤/١٣١ . الطَّبري : ٦/٤٨٣

(٢) الطَّبري : ٦/٤٨٣ . وهذه الإمدادات تهيئة ودعماً للعبور إلى الصين بعد فتح الشَّاش وفرغانة .

وفاة الحجَّاج (٩٥ هـ) :

وفي سنة ٩٥ هـ بعث الحجَّاج جيشاً من العراق إلى قتيبة ، فانطلق من مَرْو ، فلمَّا كان بالشَّاش (أو بكُشماهن) أتاه موت الحجَّاج بن يوسف الثَّقفي[1] ، فغمَّه ذلك ، وقفل راجعاً إلى مَرْو ، وتمثَّل :

لعَمري لنِعمَ المرءُ من آل جعفرٍ ... بحَورانَ أمسى أعلَقَتْهُ الْحَبائِلُ
فإنْ تحيَ لاأملَلْ حياتي وإن تَمُتْ ... فما في حَيَاةٍ بَعدَ موتِكَ طَائِلُ[2]

عاد قتيبة إلى مَرْو مغتمّاً حزيناً لموت الحجَّاج ، بعد أن ترك حاميات في بُخارى وكَش ونَسَف .. فجاءه كتاب من الوليد بن عبد الملك : قد عرف أميرُ المؤمنين بلاءَك وجدّك في جهاد أعداء المسلمين ، وأمير المؤمنين رافِعُكَ وصانع بك كالَّذي يجب لك ، فالمم مغازيك ، وانتظر ثوابَ ربِّك ، ولا تغِب عن أمير المؤمنين كتبَك ، حتَّى كأنِّي أنظرُ إلى بلادك والثَّغر الَّذي أنتَ فيه[3] .

---

(١) الكامل في التَّاريخ : ١٢٢/٤ ، الطَّبري : ٤٩٣/٦ ، الفتوح (لابن الأعثم) : ٢٥٠/٧

(٢) الحطيئة ، ديوانه ١٠٠ ، وذكروا أنَّه خرج يريد علقمة بن علاثة وهو بحوران ، فمات علقمة قبل أن يصل إليه الحطيئة ، فقال أبياتاً منها هذان البيتان . [هامش ص ٤٩٢ ، جـ ٦ ، الطَّبري] .

(٣) البداية والنِّهاية : ١١٧/٩ ، الكامل في التَّاريخ : ١٢٢/٤ ، الطَّبري : ٤٩٣/٦

وهكذا أقرَّ الوليد بعد موت الحجَّاج قادةَ الحجَّاج وعمَّالَه كلَّهم ، أقرَّهم بعده على أعمالهم الَّتي كانوا عليها في حياته .

☆ ☆ ☆



فَتْحُ كَاشْغَرَ
وغزو الصِّين
(٩٦ هـ)

« كيف يكون قليل الأصحاب من أوّل خيله في بلادك وآخرها في منابت الزَّيتون ! وكيف يكون حريصاً من خلَّف الدُّنيا قادراً عليها وغزاك . وأما تخويفك إيّانا بالقتل ، فإنّ لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل ، فلسنا نكرهه ولا نخافه » .

أعلن قتيبة سنة ٩٦ هـ النَّفير العام ، لأنَّه قرَّر العبور من فَرْغانة إلى الصِّين ، ضمن الخطَّة الَّتي رسمها الحجَّاج بن يوسف الثَّقفي ، الَّذي خاطب قتيبة وابن القاسم بقوله : « أيّكما سبق إلى الصِّين ، فهو عامل عليها وعلى صاحبها »[١] ، وكما جاء في البداية والنِّهاية [٨٧/٩] : « ولو عاش الحجَّاج لما أقلع عن بلاد الصِّين ، ولم يبقَ إلاّ أن يلتقي مع ملكها » .

(١) تاريخ اليعقوبي : ٢٨٩/٢

أعلن قتيبة التَّعبئـة العـامَّـة ، وقـال : « لا يجوزنَّ أحـد [النَّهر ـ نهر جيحـون ـ عـائـداً إلى مَرْو] إلا بجـواز »[1] ، أي بـإذن رسمي خطِّي يؤهِّله العودة من ما وراء النَّهر إلى مَرْو ، ومضى قتيبة وجنده إلى فَرْغـانـة ، وأرسـل إلى شِعْب عصـام سـلاح المهنـدسين (الفَعَلَـة) ليسهلوا له الطَّريق إلى كَاشْغَر ، وهي أدنى مدائن الصِّين .

قال إياس بن زهير : لما عبر قتيبة النَّهر أتيته فقلت لـه : إنَّـك خرجت ولم أعلم رأيك في العيال ، فنأخذ أُهبة ذلـك ، وبَنِيَّ الأكابر معي ، ولي عيـال قـد خلَّفتهم ، وأُمٌّ عجوز ، وليس عنـدهم من يقوم بأمرهم ، فإن رأيت أن تكتب لي كتابـاً مع بعض بنيَّ أُوجِّهـه فيقـدم عليَّ بأهلي ! فكتب ، فـأعطـاني الكتـاب ، فـانتهيت إلى النَّهر ـ نهر جيحون ـ وصاحب النَّهر من الجانب الآخر ، فألويت بيدي ، فجاء قوم في سفينة ، فقالوا : من أنت ؟ أين جوازك ؟ فأخبرتهم ، فقعـد عليَّ قوم ، وردَّ قوم السَّفينة إلى العامل ، فأخبروه ، قـال : ثمَّ رجعوا إليَّ فحملـوني فـانتهيت إليهم ، ثم ركبتُ فمضيتُ فـأتيتُ مَرْو ، فحملت أُمِّي ، ورجعتُ أُريـد العسكر ، وجـاءنـا مـوتُ الـوليـد ، فانصرفت إلى مَرْو[2] .

(١و٢) الطَّبري : ٦/٥٠٠

لقد فتح قتيبة مدينة كاشغر ، وعبر بذلك نهر سَيْحُون[1] ، النَّهر الَّذي يشكِّل الحدَّ الطَّبيعي بين الفرس والتُّرك ، وبين المغول ، وعبور قتيبة له كان أوَّل تحدٍّ مباشر من العرب المسلمين للشُّعوب المغوليَّة .

طلب إمبراطور الصِّين (يوانغ جونغ)[2] بعد فتح كاشغر وفداً يمثِّل قتيبة ، وكتب إلى قتيبة كتاباً جاء فيه : « ابعث إلينا رجلاً من أشراف مَن معكم يخبرنا عنكم ، ونُسائله عن دينكم » ، فانتخب قتيبة من عسكره اثني عشر رجلاً[3] من أفناء القبائل ، لهم جَمال وأجسام وألسُن وشُعور وبأس ، بعدما سأل عنهم فوجدهم مِن صالح مَن هم منه ، فكلَّمهم قتيبةُ وفاطَنَهم فرأى عقولاً وجمالاً ، فأمر لهم بعُدَّة حسنة من السِّلاح والمتاع الجيِّد من الْخَزِّ والوَشْي[4] واللَّيِّن من

(١) سَيْحُونُ : نهر مشهور كبير بما وراء النَّهر قرب خُجَنْدَة بعد سمرقند . يجمد في الشِّتاء ، حتَّى تجوز على جمده القوافل ، وهو في حدود بلاد التُّرك . [معجم البلدان : ٢٩٤/٣] .

(٢) العلاقات بين العرب والصِّين ، بدر الدِّين حي الصِّيني ، مكتبة النَّهضة المصريَّة . ط ١ سنة ١٩٥٠ م ، ص : ٢٧

(٣) هنا نثبت نصَّ الطَّبري ، وهو الرَّقم المعقول لوفد سيُسأل عن المسلمين ودينهم ، بينما في البداية والنِّهاية : ١٤١/٩ : وكانوا ثلاث مئة رسول .

(٤) الْخَزُّ : ثياب من الجواهر الموصوف بها ، قال ابن الأثير : الْخَزُّ المعروف ثياب تنسج من صوفٍ وإبريسمٍ وهي مباحة ، [اللِّسان : خزز] ، والوَشْي : نوع من الثِّياب معروف ، [اللِّسان : وشي] .

البياض والرَّقيق والنِّعال والعِطْر ، وحملهم على خيول مطهَّمة تُقادُ معهم ، ودواب يركبونها .

وكان هُبَيرة بن المُشَمْرَج الكلابي مفوَّهاً بسيطَ اللِّسان ، فقال قتيبة : يا هبيرة ، كيف أنتَ صانع ؟ قال : أصلح الله الأمير ! قد كُفيتَ الأدبَ وقل ما شئت أقله ، وآخذ به ، قال : سيروا على بركة الله ، وبالله التَّوفيق ، لا تضعوا العمائمَ عنكم حتَّى تقدموا البلادَ ، فإذا دخلتم عليه فأعلمُوه أنِّي قد حلفتُ ألاَّ أنصرفَ حتَّى أطأَ بلادَهم ، وأختم ملوكَهم ، وأجبي خراجَهم[1] .

سار الوفد ، وعليهم هبيرة بن المشمرج ، فلما قدموا أرسل إليهم ملكُ الصِّين يدعوهم ، فدخلوا الْحَمَّام ، ثُمَّ خرجوا فلبسوا ثياباً بياضاً تحتها الغَلائل[2] ، ثُمَّ مَسُّوا الغاليةَ[3] ، وتدخَّنوا[4] ، ولبسوا النِّعال والأردية ، ودخلوا عليه وعنده عظماء أهل مملكته ، فجلسوا ، فلم يكلِّمهم الملك ولا أحدٌ من جلسائه فنهضوا ، فقال الملك لمن حَضَره :

---

(١) الطَّبري : ٥٠١/٦ ، البداية والنِّهاية : ١٤١/٩

(٢) الغلالة : الثَّوب الَّذي يُلْبَس تحت الثياب ، والغلائل : الدُّروع ، وقيل بطائن تلبس تحت الدُّروع ، [اللِّسان : غلل] .

(٣) الغاليَةُ : نوع من الطِّيب ، [اللِّسان : غلا] .

(٤) الدُّخْنَة : بَخُور يُدَخَّن بها الثِّياب أو البيت ، [اللِّسان : دخن] .

كيف رأيتم هؤلاء ؟ قالوا : رأينا قوماً ما هُمْ إلاَّ نساء ، ما بقي منّا أحد حين رآهم ووَجَد رائحتَهم إلاَّ اشتهى النِّساء .

فلمَّا كان الغد ، أرسل إليهم فلبسوا الوشيَ وعمائمَ الخزِّ والمطارف[(١)] ، وغدَوْا عليه ، فلمَّا دخلوا عليه قيل لهم : ارجعوا ، فقال لأصحابه : كيف رأيتم هذه الهيئة ؟ قالوا : هذه الهيئة أشبَهُ بهيئة الرِّجال من تلك الأُولى ، وهم أُولئك ، فلمَّا كان اليوم الثَّالث أرسَلَ إليهم فشدُّوا عليهم سلاحَهم ، ولبسوا البَيْضَ والمغافرَ[(٢)] ، وتقلَّدوا السُّيوف ، وأخذوا الرِّماح ، وتنكَّبوا القِسِيَّ ، وركبوا خيولَهم ، وغدوا فنظر إليهم صاحب الصِّين فرأى أمثالَ الجبال مُقْبِلَة ، فلمَّا دنوا ركَزوا رماحَهم ، ثمَّ أقبلوا نحوهم مشمِّرين ، فقيل لهم قبلَ أن يدخلوا : ارجعوا ، لِمَا دَخَلَ قلوبَهم من خوفهم .

فانصرفوا فركبوا خيولهم ، واختلجوا رِماحَهم ، ثمَّ دفعوا خيولَهم كأنَّهم يتطاردون بها ، فقال الملك لأصحابه : كيف ترونهم ؟ قالوا : ما رأينا مثلَ هؤلاء قط ، فلَمَّا أمسى أرسل إليهم

(١) المِطْرَفُ والمُطْرَف : واحد المَطارِفِ وهي أردية من خزٍّ له أعلام . [اللِّسان : طرف] .

(٢) البيضة : واحدة البَيْض من الحديد ، توضع على الرأس في الحروب ، والمغفر : زَرَدٌ ، حلَقٌ يجعلها الرَّجل أسفل البيضة تسبغ على العنق فتقيه ، وربما كان المغفر مثل القلنسوة غير أنها أوسع يلقيها الرَّجل على رأسه فتبلغ الدِّرع ، ثمَّ يلبس البيضة فوقها . [اللِّسان : غفر] .

الملك ، أن ابعثوا إليَّ زعيمَكم وأفضلكم رجلاً ، فبعثوا إليه هُبَيرة ، فقال له حين دخل عليه : قد رأيتم عظيمَ مُلْكي ، وإنَّه ليس أحدٌ يمنعكم منّي ، وأنتم في بلادي ، وإنَّما أنتم بمنزلة البيضة في كفّي ، وأنا سائلك عن أمر فإن لم تصدقني قتلتكم ، قال : سَلْ ، قال : لِمَ صنعتم ما صنعتم من الزيّ في اليوم الأوَّل والثَّاني والثَّالث ؟

قال هُبَيرة : أمَّا زيُّنا في يومنا الأوَّل فلباسنا في أهالينا ، وريحنا عندهم ، وأمَّا يومنا الثَّاني فإذا أتينا أُمراءنا ، وأمَّا اليوم الثَّالث فزيُّنا لعدوِّنا ، فإذا هاجنا هيج وفزع كنا هكذا ، قال الملك : ما أحسن ما دبَّرتم دهركم ! فانصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له : ينصرف ، فإنّي قد عرفتُ حِرصَه وقلَّة أصحابه ، وإلاَّ بعثتُ عليكم من يُهلِكُكم ويهلكه ، قال له هُبَيرة : كيف يكون قليل الأصحاب من أوَّل خيله في بلادك وآخرها في منابت الزَّيتون[1] ! وكيف يكون حريصاً من خلَّف الدُّنيا قادراً عليها وغَزاك ! وأمَّا تخويفك إيانا بالقتل ، فإنَّ لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتلُ ، فلسنا نكرهه ولا نخافُه .

ملكُ الصّين : فما الَّذي يَرضي صاحبَك ؟

هُبَيرة : إنَّه قد حلف ألاَّ ينصرف حتَّى يطأ أرضَكم ، ويختم ملوكَكُم ، ويُعطى الجزية .

---

(١) منابت الزَّيتون : بلاد الشَّام ، حيث تكثر زراعة الزَّيتون .

ملك الصّين : فإنّا نخرجه من يمينه ، نبعث إليه بتراب من تُراب أرضنا فيطؤه ، ونبعثُ ببعض أبنائنا فيختمهم ، ونبعث إليه بجزية يرضاها ، ثمّ دعا بصِحاف من ذهب فيها تُرابٌ ، وبعث بحرير وذهب وأربعة غِلمان من أبناء ملوكهم ، ثمّ أجازهم فأحسن جوائزهم ، فساروا فقدموا بما بعث به ، فقبل قتيبة الجزية ، وختم الغِلْمة وردّهم ، ووطئَ التّراب[1] ، فقال سوادةُ بنُ عبد الله السَّلُولي :

لا عَيبَ في الوَفْدِ الّذينَ بعثتَهُمْ للصّينِ إنْ سَلكوا طريقَ المنهَجِ
كسَرُوا الجفونَ على القذى خوفَ الرّدَى حَاشَا الكريم هُبَيرةَ بن مُشَمرَجِ
لَم يرضَ غيرَ الْخَتْمِ في أعناقِهِم ورَهائِنٍ دُفِعَتْ بِحَملِ سَمَرَّجِ[2]
أدّى رِسالَتَكَ الّتي استَرعَيتَهُ وأتاكَ مِن حِنثِ اليمينِ بمخرجِ[3]

وبعد فتح كاشغر ، جاء إلى قتيبة خبرُ موت الوليد بن عبد الملك ، أمير المؤمنين ، فانكسرت همّته لذلك[4] .

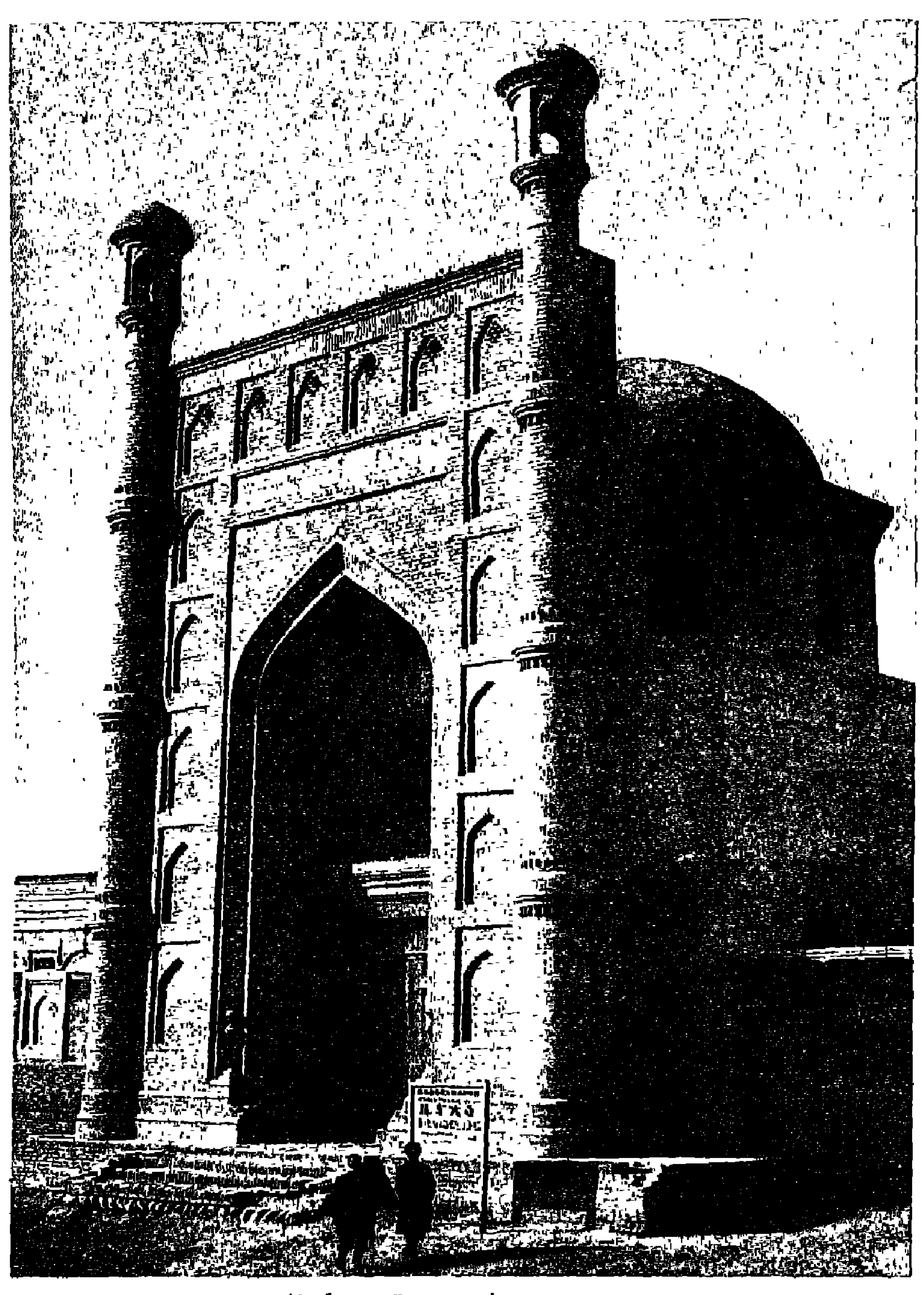
---

(١) الطّبري : ٥٠٢/٦ و ٥٠٣ ، ابن خلدون : ٦٧/٣

(٢) السَّمَرَّج والسَّمَرَّجة : استخراج الْخراج في ثلاث مرّات ، فارسي معرّب ، وقيل : السَّمَرَّج يوم جباية الخراج . [اللّسان : سمرح] .

(٣) الطّبري : ٥٠٢/٦

(٤) البداية والنّهاية : ١٤٢/٩



جامع كوتشه في منطقة سينكيانغ

مَأْسَاةُ النِّهايَةِ

قتيبةُ لسليمانَ بن عبد الملك :
« لئن لم تُقِرَّني على ما كنتُ عليه ،
وتُؤمِّنِّي ، لأخلعنَّكَ خَلْعَ النَّعلِ ،
ولأملأنَّها عليكَ خَيْلاً وَرِجالاً » .
[الطَّبري : ٥٠٨/٦]

عزم الوليدُ على خلع أخيه سليمان ، وأن يجعل ولاية العهد من بعده لولده عبد العزيز ، لأهليَّة عبد العزيز ، وعدم أهليَّة سليمان ، طاوعه الحجَّاج بن يوسف الثَّقفي على ذلك وشجَّعه عليه ، وكذلك قتيبة بن مسلم الباهلي[١] ، وحينما مات الوليد سنة ٩٦ هـ ، وتسلَّم سليمان الخلافة ، تحسَّبه قتيبة وخاف أن يولي سليمانُ يزيدَ بن المهلَّب خُراسان ، فكتب قتيبة إلى سليمان كتاباً يُهنِّئه بالخلافة ، ويعزِّيه بوفاة الوليد ، ويعلمه بلاءه وطاعته لعبد الملك والوليد ، وأنَّه له على مثل ما كان لهما عليه من الطَّاعة والنَّصيحة إن لم يعزله عن خُراسان[٢] .

---

(١) البداية والنِّهاية : ١٦٦/٩

(٢) الطَّبري : ٥٠٦/٦ ، الكامل في التَّاريخ : ١٣٨/٤ ، ابن خلدون : ٦٨/٣

وكتب إليه كتاباً آخر يعلمه فيه فتوحَه ونكايته وعظم قدره عند ملوك العجم ، وهيبته في صدورهم ، وعظم صوته فيهم ، ويذمُّ المهلَّب وآل المهلَّب ، ويحلف بالله لئن استعمل يزيدَ بن المهلَّب ليخلعنّه .

وكتب كتاباً ثالثاً فيه خلعه ، جاء فيه : لئن لم تُقرَّني على ما كنتَ عليه ، وتؤمّنني ، لأخلعنَّكَ خلع النّعل ، ولأملأنَّها عليك خيلاً ورجالاً ، وبعث بالكتب الثلاثة مع رجل من باهلة ، وقال له : ادفع إليه هذا الكتاب ، فإن كان يزيد بن المهلَّب حاضراً ، فقرأه ثمَّ ألقاه إليه ، فادفع إليه هذا الكتاب ، فإن قرأه وألقاه إلى يزيد ، فادفع إليه هذا الكتاب ، فإن قرأ الأوَّل ولم يدفعه إلى يزيد ، فاحتبس الكتابَيْن الآخرين[1] .

قدم رسولُ قتيبة دمشق ، فدخل على سليمان وعنده يزيد بن المهلَّب ، فدفع إليه الكتاب الأوَّل ، فقرأه سليمان ثمَّ ألقاه إلى يزيد ، فدفع إليه الكتاب الثَّاني فقرأه ، ثمَّ رمى به إلى يزيد ، فأعطاه الكتاب الثَّالث فقرأه فتمعَّر لونه ، ثمَّ دعا بطين فختمه ثمَّ أمسكه بيده[2] .

---

(١) الطَّبري : ٥٠٧/٦ ، البداية والنّهاية : ١٦٧/٩ ، وفيات الأعيان : ٢٩٥/٦ ، العقد الفريد : ٤٢٦/٤

(٢) وفي رواية : لما قرأ سليمانُ الكتابَ الثّالث وضعه بين مثالين من المُثُل الّتي =

ثمَّ أمر سليمانُ برسول قتيبة أن يُنزَل ، فحوِّل إلى دار الضِّيافة ، فلَمَّا أمسى ، دعا به فأعطاه صُرَّة فيها دنانير ، وقال له : هذه جائزتك ، وهذا عهد صاحبك على خُراسان ، فَسِرْ ، وهذا رسولي معك بِعَهده .

وبعث سليمانُ رجلاً يحمل كتاباً فيه خلع قتيبة ، وحينما علم قتيبة والنَّاس ذلك اضطرب الأمر ، فاستشار قتيبة إخوته ، فقالوا : لا يثق بك سليمانُ بعدَ هذا ، وقال له أخوه عبد الرحمن : اقطع بعثاً فوجِّه فيه كلَّ من تخافه ، ووجِّه قوماً إلى مَرْو ، وسِرْ حتَّى تنزل سمرقند ، ثمَّ قل لمن معك : من أحبَّ المقام فله المواساة ، ومن أراد الانصرافَ فغير مستكره ولا متبوعٍ بسوء ، فلا يقيم معك إلاَّ مناصح ، وقال له أخوه عبد الله : اخلعه مكانك ، وادعُ النَّاس إلى خلعه ، فليس يختلف عليك رجلان ، فأخذ برأي عبد الله ، فخلع قتيبةُ سليمانَ ، ودعا النَّاسَ إلى خلعه ، فقال للنَّاس[1] :

إنِّي قد جمعتكم من عين التَّمر[2] وفَيْض البحر[3] ، فضممت الأخَ

= تحته ، ولم يُجرِ في ذلك مرجوعاً ، [الطَّبري : ٥٠٨/٦] ، والمثالُ : الفراش ، وجمعه مُثُل ، [اللِّسان : مثل] .

(١) مازلنا هنا في رواية الطَّبري : ٥٠٩/٦

(٢) عين التَّمر : بلدة قريبة من الأنبار ، غربي الكوفة ، [معجم البلدان : ١٧٦/٤] .

(٣) الفَيْض : نهر بالبصرة ، [معجم البلدان : ٢٨٥/٤] .

إلى أخيه ، والولدَ إلى أبيه ، وقسمتُ بينكم فيئكم ، وأجرَيْتُ عليكم أعطياتكم غير مكدَّرة ولا مؤخَّرة ، وقد جرَّبتم الوَلاةَ قبلي ، أتاكم أُميَّة[1] فكتب إلى أمير المؤمنين إنَّ خراج خُراسان لا يقوم بمطبخي ، ثمَّ جاءكم أبو سعيد[2] فدَوَّم بكم ثلاث سنين لا تدرون أفي طاعة أنتم أم في معصية ! لم يَجْب فَيْئاً ، ولم يَنْكأ عدوّاً ، ثمَّ جاءكم بنُوه بعده ، يزيد ، فحل تبارَى إليه النِّساء ، وإنَّما خليفتكم يزيدُ بن ثروان بن هَبَنَّقَةَ القيسي[3] .

فلم يُجبه أحد ، فغضب ، لقد كانت فيه حِدَّة واعتزاز بنفسه ، ويحقُّ له هذا الاعتزاز ، فإن لم يعتز قتيبة بنفسه وإنجازاته فلمن يكون الاعتزاز بالنَّفس والإنجازات الخالدة ؟ أمَّا الحِدَّة ، فهي عيبه الوحيد .

قال قتيبة بغضب وحِدَّة : لا أعزَّ اللهُ من نصرتم ، واللهِ لو اجتمعتم على عَنْز ما كسرتم قرنها ، يا أهل السَّافلة ، ولا أقول أهلَ العالية ، يا أوباشَ الصَّدقة ، جمعتكم كما تُجمَع إبلُ الصَّدقة من كلِّ أوْب[4] ، يا معشر بكر بن وائل ، يا أهل النَّفخ والكذب

(١) أُميَّة بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص بن أُميَّة ، عامل عبد الملك على خُراسان حتَّى سنة ٧٨ هـ .

(٢) أبو سعيد : المهلَّب بن أبي صُفْرَة .

(٣) يزيد بن ثروان بن هبنقة ذو الودعات القيسي ، المضروب به المثل في الحمق .

(٤) جاؤوا من كلِّ أوْبٍ أي من كلِّ طريقٍ ووجْهٍ وناحيةٍ ، [اللِّسان : أوب] .

والبُخْـل ، بـأيٍّ يـومَيْكم تفخرون ؟ بيـوم حربكم ، أو بيـوم سلمكم ! فوالله لأَنا أعزُّ منكم ، يا أصحاب مُسَيْلَمـة ، يـا بني ذميم ، ولا أقول تميم ، يا أهل الْخَوَر والقَصْف والغَدْر ، كنتم تسمُّون الغدر في الجاهليَّة كَيْسان ، يا أصحابَ سَجَاح ، يا معشر عبد القيس القُساة ، تبـدَّلتم بأَبْر النَّخل[١] أَعِنَّةَ الخيل ، يـا معشر الأَزْد ، تبـدَّلتم بقُلُوس[٢] السُّفن أعنَّـةَ الخيـل الْحُصُن[٣] ، إنَّ هـذا لبـدعـة في الإسـلام ! والأعراب ، ومـا الأعراب ! لعنـةُ الله على الأعراب ! يـا كنـاسـةَ المصرَيْن[٤] ، جمعتكم من منـابت الشِّيح والقَيْصـوم ومنـابت القِلقِـل[٥] ! تركبـون البَقَر والْحُمُر في جـزيرة ابن كاوان[٦] ، حتَّى إذا جمعتكم كما تُجمـع قَزَع الخريف[٧] قلتم كيت وكيت ! أمـا والله إنِّي لابن أبيـه ! وأخو

---

(١) أبَرَ النخـل : أصلحـه ، وتـأبير النَّخـل : تلقيحـه ، [اللّسـان : أبر] . وهي في الطَّبري : بأبر النُّحل ، خطأ .

(٢) القلوس : جمع قَلْس ، وهو حبل ضخم من ليف أو خُوص أو غيرهـا من قلـوس سفن البحر ، [اللِّسان : قلس] .

(٣) الْحُصُن : جمع حِصَان ، والحصان الفحل من الخيل ، [اللِّسان : حصن] .

(٤) المِصْران : الكوفة والبصرة .

(٥) الشِّيح والقيصوم ومنابت القِلقِل : من نباتات البادية .

(٦) « جزيرة ابن كاوان » غير موجودة في الكامل في التـاريخ : ١٣٩/٤ ولم نعثر على تعريف لها في معجم البلدان ، ولا في كتاب الرُّوض المعطار في خبر الأقطار .

(٧) القزع : كلُّ شيءٍ يكون قطعاً متفرِّقة ، ومنه قطع السَّحاب .

أخيـه ، أمـا والله لأعصبنَّكم عَصْبَ السَّلَمـة[1] ، إنَّ حـول الصَّلِيَّـان الزَّمْـزَمـة[2] ، يـا أهـل خُراسـان ، هـل تـدرون من ولِيُّكم ؟ ولِيُّكم يزيدُ بن ثَرْوان ، كأنّي بأمير مزجـاء[3] ، وحَكَم قـد جـاءكم فغلبكم على فيئكم وأظلالكم ، إنَّ هاهنا ناراً ارْمُوهـا أرمِ معكم ، أرموا غرضكم الأقصى ، قـد استُخْلف عليكم أبو نـافع ذو الوَدَعـات ، إنَّ الشَّـأم أبٌ مَبْرور ، وإنَّ العراقَ أبٌ مكفـور ، حتَّى متى يتبطَّـح أهـل الشَّـأم بأفنيتكم وظلال دياركم ! يـا أهل خراسـان ، انسبُوني تجـدوني عراقي الأم ، عراقي الأب ، عراقي المولـد ، عراقي الهـوى والرَّأي والـدِّين ، وقـد أصبحتم اليـوم فيما ترون من الأمن والعـافيـة قـد فتـح الله لكم البلاد ، وآمن سُبُلكم ، فالظَّعينـة تخرج من مَرْوَ إلى بَلْخ بغير جِوار ، فاحمدوا الله على النِّعمة ، وسلوه الشُّكر والمزيد .

ثمَّ نزل ودخل منزله . فأتاه أهلُ بيته فقـالوا : مـارأينـا كاليوم قط ، والله مااقتصرتَ على أهل العالية وهم شعارك ودثـارك ، حتَّى

---

(١) السَّلَم : سَلِبُ العيـدان طـولاً ، شبـه القُضبـان ، وليس لـه خشب وإن عظم ، واحدته سَلَمة . [اللّسـان : سلم] .

(٢) الصِّليـان : نبت من أفضل المرعى ، والزَّمـزمـة : يعني صـوت الفَرَس إذا رآه ، وهو مثل يضرب للرَّجل يخدم لثروته .

(٣) زجى الشَّيءُ وأزجـاه : سـاقـه ودفعـه ، وأزجيتُ الإبل : سُقْتُها ، [اللّسـان : زجا] .

تنـاولتَ الأَزد وهم يَـدُك[1] ! فقـال : لمـا تكلَّمتُ فلم يجبني أحـدٌ غضبت ، فلم أدرِ ماقلتُ ، إنَّ أَهل العالية كإبل الصَّدقة وقـد جُمِعَت من كلِّ أَوب ، وأمَّا بَكْر فإنَّها أمَة لاتمنع يدَ لامِسٍ ، وأمَّـا تميم فجَمل أجرب ، وأمَّـا عبـد القيس فما يضرب العير بـذَنَبـه ، وأمَّـا الأَزْد فأعلاجٌ[2] ، شرارُ مَنْ خَلَق الله ، لو ملكتُ أمرهم لوسمتهم .

فغضب النَّاسُ وكرهوا خلع سليان ، وغضبت القبـائل من شتم قتيبـة ، فـأجمعوا على خلافـه وخَلْعـه ، وكان أوَّل من تكلَّم في ذلـك الأزد ، وأتى النَّاسُ وكيعاً بن حسـان بن قيس التَّميمي ، فسـألوه أن يقوم بأمرهم ، فقال : نعم ، وتمثَّل قولَ الأشهب بن رُمَيلة :

ســأجني مــا جنيتُ وإنَّ رُكْني لمعتَمــــدٌ إلى نَضَـــــدٍ رَكينِ

وعلم قتيبـة ببيعـة وكيع ، واجتمع إليـه أهل بيتـه وخـواص من أصحابه وثقاته ، وقال :

يانَفْس صبراً على ما كان من ألمٍ إذْ لم أجـد لفُضول القـوم أقْرانَـا

ودعا بعمامة كانت أُمُّه قد بعثت بها إليه ، فاعتم بهـا ، وكان يعتم بها في الشَّـدائـد ، وعنـدمـا جـاءت القبـائل الَّتي بـايعت وكيعـاً إلى

---

(١) هي في الطبري (بدك) ، لعلَّها خطأ مطبعي .

(٢) أعلاج : العِلْج : الواحد من كفار العجم ، والجمع عَلوج وأعلاج .

فسطاط قتيبة قطعوا حبالـه عليـه ، وقتلوا معـه إخوتـه : عبد الرَّحمن ، وعبد الله ، وصالحاً ، وحُصَيناً ، وعبد الكريم ، وقتل كثير بن قتيبة ، وعدد من أهل بيتـه ، ونجـا أخوه ضرار ، استنقـذه أخـوالـه ، وأمُّـه هي الغرَّاء بنت ضرار بن القعقـاع بن معبـد بن زرارة[1] .

☆ ☆ ☆

سليمان بن عبد الملك :

توفِّي سليمان بن عبد الملك سنـة ٩٩ هـ ، بمرج دابق من أرض قِنَّسرين ، قرب حلب ، وكانت مدَّة خلافته سنتين وثمانيـة أشهر إلاَّ خمسة أيَّام[2] .

فلو لم يصل سليمان إلى الحكم هذه المدَّة القصيرة ، لما كانت نهايـة قتيبة مأساةً له ولأهل بيته وإخوته وخُلَّص رجـالاتـه ، ولما أصـاب محمد بن القاسم الثَّقفي ماأصابه من نهايـة مؤلمة قـاسيـة ، ولمـا كانت نهاية طارق بن زياد كا كانت ، مغمورة حزينة ، ولما كانت نهايـة موسى بن نصير كا كانت مشلولة ، وقدراته معطَّلة .

قتل قتيبـة وإخوتـه شرَّ قتْلَـة ، في الوقت الَّـذي تـلاشت فيـه

(١) الطَّبري : ٥١٩/٦

(٢) الطَّبري : ٥٤٦/٦

الموانع الطَّبيعيَّة والبشريَّة ـ بعد فتح كاشغر ـ كي يصل إلى شواطئ الصِّين الشَّرقيَّة على المحيط الهادي ، ومات محمد بن القاسم الثَّقفي في سجنه في الوقت الَّذي تهيَّأت الظُّروف لفتح الهند ، ومساعدة قتيبة في فتح الصِّين كلِّها ، وأُهمل طارق وموسى في الوقت الَّذي كان فيه من الممكن العودة بجيش قوي إلى دمشق عن طريق إيطاليَة والبلقان وآسية الصُّغرى ، أي بعد الالتفاف حول حوض البحر المتوسط الشَّمالي كلِّه .

قتيبة قائد بارع ، عبقريٌّ فذّ ، إداريٌّ متميِّز ، وصفه أحمد بن زَيْني دَحْلان في (الفتوحات الإسلاميَّة) : « فحل ولاة الدَّولة الأمويَّة » ، لم يعرف منه لهو ، أو جمع لمال ، وعرفت عنه الشَّجاعة في أعلى درجاتها ، والثِّقة بالنَّفس والاعتزاز بها في أسمى صورها ، مع قدرات تؤهِّله ، وإمكانات تشهد له ، مع الإخلاص والثَّبات ، ووضوح الهدف المرسوم ، والغاية المرجوَّة .

خبير بمنطقة ميدان عمله ، يعلم تضاريسها ، ويعرف خفاياها وما يدور فيها وما يخطط ويهيَّأ باستطلاع أمين دائم ، مع استخدام فعَّال للسِّلاح الناجع المناسب ، ألا وهو سلاح الفَعَلَة (المهندسين) ، فالمدن ما وراء النَّهر منيعة محصَّنة ، يذكر (باباخان غفوروف) في كتابه : (تاريخ طاجكستان) عن حصار قتيبة لسمرقند ذات الأسوار الجبَّارة : أمر بالحفر تحت أسوارها ، في الوقت الَّذي حشد

فيه أكبر حشد من المجانيق ، وكان عددها ثلاثمئة منجنيق ، فأجبر حاميتها على الاستسلام .

ونشر قتيبة الإسلام ، وشجع سكان ما وراء النَّهر على اعتناقه ، خصوصاً بعدما أسكن العرب المسلمين المدن الهامَّة ، فتعرَّف السُّكَّان على الإسلام من سلوك المسلمين أنفسهم عن طريق المخالطة اليوميَّة ، وخصوصاً عندما حرَّق الأصنام أمام أعين السُّكان ولم يصبه أذى من تحطيمها وإحراقها ، واعتناق الإسلام الَّذي رافق الفتح ، باقٍ إلى يومنا هذا خالد ، يعتزُّ به ابن هذه المناطق ، ولا ننسى أنَّ شعوب ما وراء النَّهر شاركت بعد استقرارها واستتباب الأمن فيها وبناء المساجد والمدارس ؛ في الحضارة الإسلاميَّة بأحسن ما تكون المشاركة ، فأسماء كبيرة لامعة سطعت في سماء الإنسانيَّة جمعاء بفضل سماحة الإسلام وطبيعة تعاليمه ، منها : البخاري ، الخوارزمي ، الرَّازي ، النَّيسابوري ، البيروني ، الفارابي ، الغزالي ، جلال الدِّين الرُّومي ، أبو حنيفة الدّينوري ، الفردوسي ، الطَّبري ...

ماذا كان سيحدث لأُمَّة الإسلام بعد سنة ٩٦ هـ = ٧١٥ م ، لو بقي قتيبة في عملياته بعد كاشغر شمالي التِّيبت ، وابن القاسم في فتوحاته في البَنجاب وكشمير ، وطارق وموسى في طموحهما في الالتفاف حول حوض البحر المتوسط ، والعودة إلى دمشق ـ عاصمة الخلافة الأُمويَّة ـ عن طريق القسطنطينيَّة ؟!؟

قال رجل من عَجَم أهل خراسان : يا معشر العَرَب ، قتلتم قتيبةَ ! والله لو كان قتيبة منّا فمات فينا جعلناه في تابوت فكُنّا نستفتح به إذا غَزَوْنا ، وما صنع أحد قطّ بخُراسانَ ما صنع قتيبة ، إلاّ أنّه قد غدر[1] .

وقال آخر : يا معشر العرب ، قتلتم قتيبة ويزيدَ[2] وهما سيّدا العرب !

فقيل له : فأيُّهما كان أعظم عندكم وأهيَب ؟

قال : لو كان قتيبة بالمغرب بأقصى حُجْرٍ به في الأرض مكبَّلاً بالحديد ، ويزيد معنا في بلادنا والٍ علينا ، لكان قتيبة أهيب في صدورنا وأعظم من يزيد[3] .

حضرت والدة أمير فَرْغانة إلى مقرّ القائد نصر بن سَيَّار للتّوقيع على اتّفاق صلح ، بعد مرور عشرين سنة على مقتل قتيبة ، بعد أن قدَّموا لها القادة الَّذين حضروا المناسبة ، وكان بينهم الحجَّاج بن قتيبة بن مسلم الباهلي ، الَّذي أحبَّته وسألت عنه ، ثمَّ قالت لابن سَيَّار : قتيبة الَّذي ذلَّل لكم ما أرى ، وهذا ابنه تقعده دونك ، فحقه أن تجلسه أنت هذا المجلس ، وتجلس أنت مجلسه ، وعقدت الصُّلح ، ورجعت[4] .

(١) سنعالج هذه العبارة « إلاّ أنّه قد غدر » ، على صفحات الخاتمة .

(٢) يزيد بن المهلّب بن أبي صُفْرة ، قتل سنة ١٠١ هـ = ٧٢٠ م في العراق .

(٣) الطبري : ٥١٩/٦

(٤) الفتوحات الإسلاميّة : ٢٣١/١

خَاتِمَةٌ

قَضِيَّةٌ فَرِيدَةٌ خَالِدَةٌ فِي تَارِيخِ الإِنسَانِيَّة

« إنّ أهل سمرقند قد شكو إليّ ظلماً أصابهم ، وتحاملاً من قتيبة عليهم حتّى أخرجهم من أرضهم . فإذا أتاك كتابي فأجلس لهم القاضي ، فلينظر في أمرهم ، فإن قضى لهم فأخرجهم إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة »[١] .

عمر بن عبد العزيز .

دخل رجاء بن حَيْوَة[٢] على سليمان بن عبد الملك وهو في مرضه الأخير ، فرآه يعهد في كتاب يكتبه لبعض بنيه ، فقال رجاء : ماتصنع ياأمير المؤمنين ! إنَّه ممّا يحفظ الخليفة في قبره أن

---

(١) الطّبري : ٥٦٨/٦

(٢) رجاء بن حَيْوَة بن جرول الكندي [ت : ١١٢ هـ = ٧٣٠ م] : شيخ أهل الشّام في عصره ، من الوعّاظ الفصحاء العلماء . كان ملازماً لعمر بن عبد العزيز في عهدي الإمارة والخلافة ، واستكتبه سليمان بن عبد الملك . وهو الّذي أشار على سليمان باستعمال عمر بن عبد العزيز . [الأعلام : ١٧/٣] .

يستخلف على المسلمين الرَّجل الصَّالح ، فقال سليمان : أنا أستخير الله وأنظر فيه ، ولم أعزم عليه .

وبعد يوم أو يومَيْن ، قال سليمان لرجاء : ما ترى في داود بن سليمان ؟ فقال : هو غائب عنك بقسطنطينيَّة ، وأنت لا تدري أحيٌّ هو أم ميِّت ! فقال : فمن ترى ؟ قال رجاء : رأيك يا أمير المؤمنين ، وأنا أُريد أن أنظر من يذكر ، قال سليمان : كيف ترى في عمر بن عبد العزيز ؟ قال رجاء : أعلمه والله خَيِّراً فاضلاً مسلماً ، فقال : هو والله على ذلك ، فكتب :

« بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، هذا كتابٌ من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمرَ بن عبد العزيز ، إنِّي قد ولَّيتك الخلافةَ من بعدي ، ومن بعده يزيد بن عبد الملك ، فاسمعوا وأطيعوا ، واتَّقوا الله ولا تختلفوا فيُطمَعَ فيكم »[1] .

وختم الكتاب ، وأرسل إلى كعب بن حامد العبسي ، صاحب شُرَطِه ، فقال : مُرْ أهل بيتي فليجتمعوا ، فأرسل كعب إليهم أن يجتمعوا فاجتمعوا ، ثم قال سليمانُ لرجاء بعد اجتماعهم : اذهب بكتابي هذا إليهم فأخبرهم أنَّ هذا كتابي ، وآمُرهم فليبايعوا من ولَّيتُ فيه ، ففعل رجاء ، فلما قال رجاء ذلك لهم قالوا : ندخل فنسلِّم على

---

(١) الطَّبري : ٥٥١/٦

أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، فدخلوا ، فقال لهم سليمانُ : في هذا الكتاب ـ وهو يشير إلى الكتاب وهو في يد رجاء بن حَيْوَة ـ عهدي ، فاسمعوا وأطيعوا وبايعوا لِمَن سَمَّيت في هذا الكتاب ، فبايَعُوه رجلاً رجلاً ، ثمّ خرج رجاءُ يحمل الكتابَ مختوماً .

قال رجاء : فلما تفرَّقوا جاءني عمر بن عبد العزيز فقال : أخشى أن يكون هذا أسندَ إليَّ شيئاً من هذا الأمر ، فأنشدك اللهَ وحُرْمتي ومودَّتي إلاَّ أعلمتني إن كان ذلك حتّى أستعفيَه الآن قبل أن تأتيَ حال لا أقدر فيها على ما أقدر عليه السّاعة ! قال رجاء : لا والله ما أنا بمخبرك حَرْفاً ، فذهب عمرُ غضبان .

ودخل رجاء على سليمان ، فإذا هو ميّت ، فخرج فأرسل إلى كعب بن حامد العبسي ، وأمره أن يجمع أهل بيت أمير المؤمنين ، فاجتمعوا في مسجد دابق ، وبايعوا عمرَ بنَ عبد العزيز ، وغُسل سليمان وكفِّن وصلَّى عليه عمرُ بنُ عبد العزيز ، فلما فُرِغ من دفنه ، أُتِيَ بمراكب الخلافة : البراذين والخيل والبغال ، ولكلٍّ دابَّة سائس ، فقال عمرُ : ما هذا ! قالوا : مَركَب الخلافة ، قال : دابَّتي أوفَق لي ، وركب دابَّته ، وصُرِفت تلك الدَّواب .

عزل عمرُ بنُ عبد العزيز يزيدَ بنَ المهلب بن أبي صفرة عن ولاية خُراسان ، وولاَّها سليمانَ بن أبي السري ، والَّذي كتب له عمر

يوماً أن اعمل خانات في بلادك ، فمن مرَّ بكَ من المسلمين فاقروهم يوماً وليلة ، وتعهَّدوا دوابَّهم ، فمن كانت به علَّة فاقْرُوه يومين وليلتَيْن ، فإن كان منقطَعاً به فقوُّوه بما يصل به إلى بلده .

لقد مرَّ معنا قول المجشَّر بن مزاحم السُّلمي لقتيبة : « إن أردت الصُّغد يوماً من الدَّهر فالآن ، فإنَّهم آمنون من أن تأتيهم من عامك هذا .. »[1] ، فسار قتيبة إلى الصُّغد ، وفتح سمرقند سنة ٩٢ هـ عُنْوة .

قبل أهل سمرقند الأمر الواقع ، ولما آلت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ ، وبلغهم عنه ماملأ أطراف الدَّولة وجوانبها من الحديث عن عدله ونصرته للحقِّ ووفائه وبغضه للظُّلم ، قال أهل سمرقند لسليمان بن أبي السري : إن قتيبة غَدَر بنا ، وظلمنا وأخذ بلادنا ، وقد أظهر الله العدل والإنصاف ، فائذن لنا فليفِدْ منا وفد إلى أمير المؤمنين يشكون ظُلامتنا ، فإن كان لنا حقٌّ أُعطيناه ، فإنَّ بنا إلى ذلك حاجة ، فأذن لهم ، فوجَّهوا منهم قوماً ، فقدموا على عمرَ بن عبد العزيز ، فعرضوا الأمر عليه ، وقالوا فيما قالوه : إنَّ قتيبة غدر بنا ظلماً ، وأخذ بلادنا ، والأمر إليكَ لترفع عنا مانزل بنا على يديه ، فتناول الخليفة قرطاساً وقلماً ، وكتب إلى سليمان بن أبي السري :

(١) الطبري : ٤٧٢/٦

« إنَّ أهل سمرقند قد شكَوا إليَّ ظلماً أصابهم ، وتحاملاً من قتيبة عليهم حتَّى أخرجهم من أرضهم ، فإذا أتاك كتابي فأجلس لهم القاضي ، فلينظر في أمرهم ، فإن قضى لهم فأخرجهم إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة »[1] .

وعاد وفد سمرقند بكتاب الخليفة إلى عامله ، فأحال قضيتهم إلى القاضي جُمَيْع بن حاضر النَّاجي ، قاضي سمرقند ، فاستمع إلى ظلامتهم ، واستدعى شهودهم عليها ، ثمَّ استدعى شهوداً من الجيش الَّذي حضر الموقعة مع قتيبة فشهدوا بالحقِّ ، شهدوا أنَّ قتيبة لم ينبذ إليهم عهدهم ، بل فاجأهم بالفتح .

ولَمَّا وضح هذا أمام قاضي سمرقند ، أصدر حكمه في هذه القضيَّة صريحاً لا غموض فيه ، قويّاً مجلجلاً ناطقاً بعدالة الإسلام وسماحته ، قال القاضي جُمَيْع بن حاضر النَّاجي : على الجيش الإسلامي الَّذي فتح سمرقند بقيادة قتيبة أن يتأهَّب للخروج منها فوراً ، كذلك يخرج منها المسلمون الَّذين دخلوها بعد الفتح .

« فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سَواء ، فيكون صلحاً جديداً أو ظفراً عنوةً »[2] .

---

(١) و (٢) الطَّبري : ٥٦٨/٦

لقد كان لهذا الحكم رجّة في كلّ أنحاء سمرقند ، إذ ما كان يتصوّر أحدٌ أنّ تعاليم الإسلام تمضي على هذا النَّحو ، وتعطي الحقّ للقاضي أن يأمر الجيش بالخروج من بلد فتحه واستقرّ فيه .

وأسرع سليمان بن أبي السري يخطر الخليفة بالحكم الصّادر عن قاضي سمرقند ، ويطلب مشورته ، فجاء الرَّدُّ بتنفيذ حكم القاضي بحذافيره ، وعندئذ أصدر أمره إلى الجيش بالتأهُّب للرَّحيل ، وإلى المسلمين وذراريهم بمغادرة سمرقند .

وبينما هذا يجري على قدم وساق ، والجيش يجمع أسلحته وأمتعته ، ويفكُّ مخيَّماته ، وبينما المسلمون المقيمون بالمدينة يودّعون أهل سمرقند ، ويحزمون أمتعتهم ، ويعلنون بيع أملاكهم فيها ، وإذا بمفاجأة تَجِدُّ لم تكن في الحسبان ، فقد تداول أهل سمرقند الأمر ، فقالوا : « بل نرضى بما كان ، ولا نجدِّد حرباً ، وقال أهل الرَّأي : قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم ، وأَمِنونا وأمنَّاهم » .

لقد جاء وفد يمثِّل أهل سمرقند إلى الوالي ، وأبلغوه أنَّهم تشاوروا فيا بينهم بعد هذا الحكم ، الَّذي مادار بخلدهم لحظة واحدة أنَّ تعاليم الإسلام لاتضيق بمثله ، وأنَّهم ما كانوا يتوقَّعون أنَّ هناك قاضياً يجرؤ على مطالبة الجيش الفاتح بالجلاء عن بلد فتحه ، وأنَّهم ما كانوا يتصوَّرون أنَّ القاضي سيهمل في القضيَّة عصبيَّته لقومه ،

ولا يعيرها اعتباراً ولا وزناً ، وأنّهم استبعدوا أن يأمر الخليفة بتنفيذ الحكم كما صدر مع انصياع الجميع له ، دون أن يكون هناك اعتبار لما يترتّب على تنفيذه من عنت لمن صدر في شأنهم .

أمام هذا ، وأمام التّسامح وحسن المعاملة اللّذين وجدوهما من الفاتحين المسلمين المقيمين مع أُسَرهم بسمرقند حال إقامتهم فيها ، لا يسعهم إلاّ أن يعلنوا عن تنازلهم عن حقّهم ، والمطالبة ببقاء الحال على ما هي عليه ، لأنّهم لن يخشوا بعد اليوم ضرّاً ينالهم[1] ، وإزاء هذه الرّغبة الصّادقة من أهل سمرقند ، أُمِرَ الجيش بالبقاء ، وأُمر المسلمون بعدم الخروج ، وكانت فرحة مزدوجة من الجانبَيْن .

وكانت هذه القضيّة سبباً في إسلام كثير من أهل سمرقند ، وانضوائهم تحت راية الإسلام ، والإخلاص لتعاليمه ، والعمل على نشرها ، والاستمساك بما أمرت به ، والاعتصام بحبل الله المتين ، حتّى غدت سمرقند بعد سنين قليلة مركزاً من المراكز الإسلاميّة المرموقة ، يأتيها الدّاني والقاصي للتّزوّد بزاد المعرفة من علمائها الأعلام .

---

(١) خصوصاً وأنّ العرب الفاتحين تركوا الإدارة المدنيّة إلى حكام من أهل البلاد نفسها ، وعيّنوا حكاماً من العرب لإدارة الشّؤون الحربيّة والماليّة .

إنّها قضيَّة فريدة خالـدة في تـاريخ البشريّـة ، يحقُّ لأُمتنـا أن تفخر بها ، وبفتحها الإنساني الأخوي .

☆ ☆ ☆

رحم الله قتيبة بن مسلم البـاهلي ، وجعلـه في علّيين ، لقـد كان من نخبة الأمراء وخيارهم ، ومن القادة النجبـاء الكبـار ، والفـاتحين الشُّجعان ، ومع هذه الصّفات الرفيعة كان يعلم أنّ النّصر من عند الله أوّلاً وأخيراً ، وأنّ في جيشـه رجـالاً صـالحين لا يـؤبـه لهم من حيث المظهر واللّباس ، لو أقسموا على الله لأبرَّ الله قسمهم ، منهم :

محمّـد بن واسع بن جـابر الأزدي[1] ، الّـذي دخل على قتيبـة في مـدْرَعـة.صوف ، فقـال لـه قتيبـة : مـا يـدعـوك إلى لبـاس هـذه ؟ فسكت ، فقال له قتيبة : أُكلمـك ولا تجبني ؟ قـال : أكره أن أقول زهـداً فـأُزكّي نفسـي ، أو أقول فقراً فـأشكو ربّي ، فمـا جـوابـك إلاّ السكوت[2] .

جاء في [عيون الأخبار[3] : ١٢٢/١] : لما صافّ قتيبة بن مسلم

---

(١) محمّـد بن واسـع بن جـابر الأزدي [ت ١٢٣ هـ / ٧٤١ م] : فقيـه ورع من الـزُّهّـاد ، من أهـل البصرة ، وهـو من ثقـات أهـل الحـديث ، [الأعلام : ١٣٣/٧] .

(٢) العقد الفريد : ٢٧٢/٢ و ٢٢٥/٤

(٣) وتهذيب التّهذيب : ٤٩٩/٩ ، تاريخ الإسلام للذّهبي : ١٥٩/٥

التُّركَ ، وهاله أمرُهم ، سأل عن محمد بن واسع ما يصنع ؟ قالوا : هو في أقصى الميمنة ، جانح على سِيَة[1] قوسه ، ينضنض[2] بإصبعه نحو السَّماء ، فقال قتيبة : تلك الإصبع الفاردة أحبُّ إليَّ من مئة ألف سيف شهير ، وسنان طَرير[3] ، فلما فتح اللهُ عليهم ، قال قتيبة لمحمد : ما كنت تصنع ؟ قال : كنت آخذ لك بمجامع الطُّرق .

رحم اللهُ فاتح ماوراء النَّهر ، قتيبة بن مسلم الباهلي ، أوَّل أمير مسلم وطئت أقدام جنده أرض الصِّين ، والقائد الذي ما كُسِرَت له راية ، مع إدارة ناجحة ، « حتَّى إنَّ الظَّعينة لتخرج من مَرْو إلى سمرقند من غير جوار » .

وحسبه أنَّه مات في سبيل نشر دينه ، ومات دون رأيه .

إنَّه القائد الوحيد من قادة الوليد بن عبد الملك الَّذي مات ميتة أشرف من القادة الآخرين ، ولم يستطع سليمان بن عبد الملك أن يذله ، لقد مات في قمَّة مجده ، وهو في الخامسة والأربعين من عمره .

☆ ☆ ☆

---

(١) سِيَة القوس : ما انعطف من طرفيها ، أو طرف قابها ، أو رأسها ، أو ما اعوجَّ منه ، [متن اللُّغة : ٢٥٨/٣] .

(٢) ينضنض : يحرِّك ، [اللِّسان : نضض] .

(٣) سنان طَرير : سنان محدَّد ، وطرَّ الحديدة طرّاً وطُروراً : أحدَّها ، [اللِّسان : طرر] ، وسنان الرُّمح : حديدته .

المحتوى

للمؤلف

(منشورات دار الفكر بدمشق) :

- آراء يهدمها الإسلام .
- الإسلام في قفص الاتّهام .
- الإسلام وحركات التّحرر العربيّة .
- أطلس التّاريخ العربي (ملوّن) .
- الإنسان بين العلم والدّين .
- عوامل النّصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي .
- غريزة أمْ تقديرٌ إلهي ؟
- في التّاريخ الإسلامي .
- قراءة علميّة للقراءات المعاصرة .
- من ضيّع القرآن ؟
- هارون الرّشيد .
- الهجرة حدث غيّر مجرى التّاريخ .

سلسلة في الميزان :

- جرجي زيدان في الميزان
- فيليب حتي .
- كارل بروكلمان .
- غوستاف لوبون .

غزوات الرّسول الأعظم (١٠/١) :

- بدر الكبرى .
- تبوك .
- حروب الرّدة .
- حُنَين والطّائف
- الخندق .
- صلح الحديبية .
- غزوة أُحَد .
- غزوة خيبر .
- غزوة مؤتة .
- فتح مكّة .

المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام (١٤/١) :

- الأَرَك .
- بلاط الشُّهداء .
- ذات الصّواري .
- الزّلاقة .
- فتح صِقِلّيّة .
- القادسيّة .
- مصرع غَرْناطة .
- نهاوند .

- العقاب .
- وادي المخازن .
- عمورية .
- اليرموك .
- فتح الأندلس .
- فتح سمرقند

أُحبُّ أن أعرف (٦/١) : (تحت الطبع) :

- أنا عربي
- محمد بن عبد الله ﷺ (قبل البعثة)
- حضارة أجدادي
- محمد بن عبد الله ﷺ (من البعثة إلى الهجرة)
- العرب قبيل الإسلام
- محمد بن عبد الله ﷺ (في المدينة المنوَّرة)

☆ ☆ ☆

أُحبُّ أن أكون (٢٠/١) : (قصص للأطفال) :

- أعرفُ الحقيقة
- أمزح صادقاً
- أعرفُ واجباتي
- راحة أُمي
- أنا لا أسخر من أحد
- العافية تاج
- حُرِمتُ اللَّبن
- قبيل النَّوم
- دموع شجرة
- الكلمة الطيِّبة



- رحلة اطّلاعيّة
- زائرون في بيتنا
- صيدليّة منزلي
- الفضول المؤذي
- في الغابة

- لكلٍّ أوانه
- للعب آدابه
- مهنة والدي
- نسي الزّمن
- هوايتي المفيدة

٭ ٭ ٭

- أضواء على مواقف المستشرقين والمبشّرين جمعية الدّعوة الإسلاميّة العالمية.
- تحرير لا استعمار جمعية الدّعوة الإسلامية العالمية.
- تسامح الإسلام وتعصّب خصومه جمعية الدّعوة الإسلامية العالمية.
- الحضارة العربيّة الإسلاميّة كليّة الدّعوة الإسلامية العالمية.

٭ ٭ ٭





- الأرك .
- بلاط الشهداء .
- ذات الصواري .
- الزلاقة .
- العقاب .
- عمورية .
- فتح الأندلس .
- فتح الديبل .
- فتح صقلية .
- القادسية .
- مصرع غرناطة .
- نهاوند .
- وادي الخازن .
- اليرموك .

DAR AL-FIKR
U.S.A

